الأدب العربي
في مختلف العصور

إعداد
أبو السعود سلامه أبو السعود

الدكتور
رمضان خميس القسطاوي





الأدب العربي في مختلف العصور

العصر الجاهلي	عصر صدر الإسلام
العصر الأموي	العصر العباسي
العصر الأندلسي	العصر الحديث

أبو السعود سلامة أبو السعود

الدكتور/ رمضان خميس القسطاوي
دكتوراه في اللغة العربية
جامعة الأزهر

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق / ميدان المحطة / شارع الشركات

ت : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١

ف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

رقم الإيداع:

٧٢٧٩

الترقيم الدولي

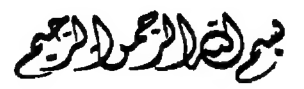
I.S.B.N. 977- 308- 084- 6

جمع وإعداد

فايزى محمد عبد الحميد

عبير السيد أبو شبل

2017



الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد سيدنا محمد ﷺ وعلى أله وأصحابه الأطهار.

وبعد ،

فهذا الكتاب (الأدب العربي في مختلف العصور) لمؤلفه الأستاذ/ أبو السعود سلامة أبو السعود ، عرض فيه للأدب في العصر الجاهلي بألوانه المختلفة الشعر ، والنثر ، كما عرض عصر صدر الإسلام ، والعصر الأموي ، والعباسي ، والأندلسي ، وذلك الكتاب بالحديث عن الأدب في العصر الحديث ، بفنونه الأدبية التي جدّت فيه ، والكتاب في مجمله تأصيل للصورة الأدبية في هذه العصور ، وهو من الكتب القليلة التي جمعت الحديث عن العصور الأدبية في مؤلف واحد مما يزيد الكتاب قيمة تنظيمية تضاف لقيمته العلمية .

كتبه

د / رمضان خميس القسطاوي

مقـدمـة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلي أله أجمعين .

أما بعد ،

فهذا كتاب " تطور الأدب العربي في مختلف العصور"، ويشتمل علي ستة عصور لكل عصر منها وحدتان إحداهما للشعر والأخري للنثر ، وقد حرصت حرصاً تاماً علي سهولة العرض حتي يحسن الاستفادة منه ، كما حرصت علي مقارنة كل عصر بغيره يقينا بأن المقارنة تعمق الفهم وتوضح المدلول .

قسمت الكتاب إلي ستة أبواب ، بدأت الباب الأول بإطلالة علي الأدب في العصر الجاهلي ، وتحدثت فيها عن التأريخ الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي للعرب قبل الإسلام ، ثم عن منهج القصيدة الجاهلية الطويلة ، وبينت سبب تخلص القصيدة القصيرة من المقدمات ، ثم تحدثت عن بناء القصيدة وموضوعاتها وهيئة الشاعر عند الفخر والمديح والهجاء ثم تحدثت عن فنون النثر الجاهلي من خطابة ووصايا وأمثال وحكم ، وكذلك عن أهم نتائج الفترة الجاهلية. ثم تطرقت في الباب الثاني إلي الأدب في صدر الإسلام ، وقد قسمت هذا الباب إلي فصول ، في الفصل الأول تحدثت عن الشعراء المخضرمين والشعراء الذين ولدوا مع الإسلام ، وفي الفصل الثاني تحدثت عن النثر في عصر صدر الإسلام ، ثم تحدثت بعد ذلك عن مراحل كتابة الرسائل وقسمت هذه المراحل إلي فترة النبوة ، وفترة الخلفاء

الراشدين ، ثم تحدثت عن الملامح الفنية العامة للخطابة من حيث الألفاظ والمعاني والأسلوب والوحدة الموضوعية والميل إلي الإيجاز، وطريقة الخطابة .

ثم تطرقت في الباب الثالث إلي العصر الأموى ، تحدثت في الفصل الأول عن الشعر والركود الذي أصابه في بداية العصر الأموي ، وكيف أنطلق بعد ذلك ؛ لنشوب الفتن الداخلية وظهور الأحزاب السياسية ، ثم تحدثت عن أهم شعراء العصر الأموي وملامح تطور الشعر واتجاهاته ، ثم تحدثت في الفصل الثاني عن النثر وبينت دور الخطابة السياسية والاجتماعية وهيئة الخطيب حين يتقدم للخطابة ، ثم تحدثت عن بعض خطباء بني أمية واخترت بعض نماذج الخطابة في هذه الفترة ، ثم تحدثت عن الكتابة الفنية وكيف نضجت علي يد عبدالحميد بن يحيى المشهور بالكاتب ، ثم تحدثت عن الخصائص الفنية للنثر الأموي .

وتطرقت في الباب الرابع إلي العصر العباسي ، وقد قسمته إلي فصلين : الأول: عن الشعر وملامح التجديد فيه ، والثاني : عن النثر الذي كان تعبيراً جياشا عن عواطف الكتّاب ومشاعرهم .

وتطرقت فى الباب الخامس إلي العصر الأندلسى ، وقد قسمته إلي قسمين:

✍ **القسم الأول** : عن الشعر ، وقد قسمته إلي اتجاهين :

الأول : الاتجاه المحافظ .

الثاني : الاتجاه التجديدى .

وقد تجسم هذا الاتجاه في الموشحات التي انفردت بها بلاد الأندلس، وقد بينت اشتمال الموشحات علي جانبين : الجانب الموسيقي ، والجانب اللغوي .

✍ **القسم الثاني** : عن النثر :

وهو امتداد للنثر الأموي ، ثم تحدثت عن أقسام النثر في العصر الأندلسي ذاكرا لمحة موجزة عن الأدب الأندلسي شعره ونثره .

ثم تطرقت في الباب السادس إلي العصر الحديث ، في الفصل الأول تحدثت عن مدرسة الإحياء والبعث ، ثم عن مطران وريادته للمدرسة الرومانسية، ثم عن مدرسة الديوان وتأثر أصحابها بالرومانسية الإنجليزية ، ثم عن مدرسة المهاجر ومدرسة أبوللو وكيف أثر فيها الشعر المهجري ، ثم تحدثت عن المدرسة الواقعية وقيامها علي أساس واقعي .

ثم تطرقت في الفصل الثاني إلي النثر في العصر الحديث ، وبينت الفنون الجديدة التي أضيفت للنثر من مقالة وقصة ومسرحية وشعر تمثيلي كما بينت أن الكثير من الأدب العربي ترجم إلي سائر اللغات الأخرى .

وبعد هذه الرحلة الشاقة أدعو الله أن أكون قد وفقت .

"وما توفيقي إلا بالله"

المؤلف

أبوالسعود سلامة أبوالسعود

الباب الأول

العصر الجاهلى

الفصل الأول : الشعر ...

إطلالة علي الأدب في العصر الجاهلي

كانت البيئة انعكاسا للأدب في العصر الجاهلي ، عايشها العربي ، فاكتسب منها الصلابة والصبر والكرم والقسوة والغلظة .

وتجلي هذا الأثر أكثر عند الشعراء فعبروا عن التاريخ الديني والاجتماعي والاقتصادي في البيئة ، بل و عبروا عن كل شئ وقع عليه نظرهم بغض النظر عن القيمة الحقيقية للشئ المشاهد ، وهم بهذا التأريخ جعلونا نتعرف علي جوانب الحياة في منظور العربي قبل الإسلام .

وكان للمرأة الجانب الهام في حياة الفرد ، وكأنها النسمة الرقيقة التي تلطف من صعوبة الجو ووعورة الأرض وقلة الرزق .

وقد نجح الشعراء قبل الإسلام في التعبير عن هذه الحقبة خاصة أن معرفة دقائق هذه الفترة لم تدون لندرة من كان يعرف القراءة والكتابة ، وبالتالي كان شعر الشعراء ترجمة لهذه الفترة ، ولكي نتعرف بوضوح علي هذه الفترة لابد لنا من التعرف علي بعض الجوانب التالية :

أولاً : الجانب الديني :

تعددت الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام وقد تأثر سكان هذه البلاد في عبادتهم بالتراث الديني في أوطانهم وببعض عبادات بعض البلاد التي اتصلوا بها خلال رحلتي الشتاء والصيف ، كما اختلفت العبادات باختلاف الأمكنة ، ففي

جنوب الجزيرة ظهرت عبادة الظواهر الكونية ؛ لارتباطها بحرفتي الزراعة والتجارة، كنجمة الصباح والشمس والقمر، وقد تحدث القرآن الكريم عن عبادة الشمس في مملكة سبأ ، وقد اتخذت الحياة الدينية في الشمال الشرقي ، والشمال الغربي للجزيرة أشكالا مختلفة تأثرا بالفرس تارة ، وبالرومان تارة أخري ،....

وعموما كانت الديانة الوثنية هي السائدة بين معظم قبائل العرب قبل الإسلام إذ عبدوا الأصنام والأوثان والأنصاب ، وقد ذكر القرآن بعض أسماء هذه الأصنام كاللات والعزى ومناة ويغوث ونسرا، كما اعتنق بعضهم المجوسية وبخاصة جهة البحرين ، بجانب ذلك كانت هناك الديانات السماوية فاليهودية انتشرت في بلاد العرب قبل الإسلام في خيبر، ووادي العزى ، وفدك ، وتيماء ، ويثرب حيث قبائل بنى النضير، وبنى قريظة ، وبنى قينقاع ، وكأنما هذا التجمع كان مقصودا منهم لعلمهم أن نبى آخر الزمان سيهاجر إلي هذه الأرض ، كما انتشرت اليهودية في بلاد اليمن وتعصب لها بعض ملوك حمير، وقد بين القرآن الكريم هذا التعصب في سورة "البروج" .

أما المسيحية فقد انتشرت في قبائل غسان وتغلب وقضاعة في الشمال وامتد ذلك إلي بلاد اليمن في الجنوب ، وكان بين العرب جماعات مستنيرة عبدوا الله علي دين إبراهيم -عليه السلام - ، وقد دعوا إلي نبذ عبادة الأصنام ، والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات ، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وكانوا يعتقدون بوجود إله واحد ، ويطلق علي هؤلاء الحنفاء ، منهم : ورقة بن نوفل ، وأمية بن أبي

الصلت ، وعثمان بن الحويرث ، وكعب بن لؤى بن غالب ، وهو أحد أجداد الرسول - صلي الله عليه وسلم - وزيد بن عمرو بن نفيل .

ثانيا : الجانب الاجتماعي :

كان العرب يعيشون في قبائل يرأسها رئيس يسمي شيخ القبيلة ، ويختار من بين أفراد القبيلة سنا ، وشرفا ، وحسبا ، ونسبا ، وثروة ، وكرما ، وحلما ، وشجاعة ، وتجربة ، وكان يحكم بينهم بمقتضي العرف والتقاليد ، ويقودهم في الحرب ، ويفصل في أمور القتل ، والغزو ، والديّة ، والثأر ، كما يقضي في مسائل الزواج ، والطلاق ، وكان لشيخ القبيلة حقوق أهمها :-

١- **المرباع** : وهو اختصاصه بربع الغنيمة .

٢- **الصفايا** : وهو ما يصطفيه لنفسه قبل تقسيم الغنائم .

٣- **الفضول** : وهو ما يتبقى من الغنيمة بعد القسمة ، ولا يقبل قسمته علي المحاربين كبقاء امرأة بعد القسمة فهي من نصيب شيخ القبيلة .

٤- **الحكم** : هو أن يبارز الفارس فارسا قبل التقاء الجيشين فيقتله ، ويأخذ سلبه ، فالحكم فيه إلي الرئيس ، أما واجبات رئيس القبيلة ، فتكون في إيواء الغريب ، وحماية الحمى ، والزود عن النساء ، وإجارة المجير ، وكانوا في وقت الحرب يضحون بما تملكه أيديهم في خدمة القبيلة ، وإغاثة المحتاجين ، والمحافظة علي وحدة وقوة القبيلة ، أما أفراد القبيلة فكانوا يعملون كجماعة واحدة ، ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما ، ..

وكانت القبيلة اجتماعيا تتكون من ثلاث طبقات :

أ): أبناء القبيلة الخلص :

وهم ذووا الدم النقي الذي لا تشوبه شائبة بمعني أنهم انحدروا جميعا من أب واحد ومنهم تكون الرياسة والشرف .

ب): العبيد : وهي تتكون من عنصرين :

الاول : عنصر عربي :

وهم الأسري الذين أسروا في الحروب سواء كان المأسور ذكرا أم أنثي .

الثاني : عنصر غير عربي :

وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية خاصة بلاد الحبشة والبلاد المجاورة لها ، أو يخطفون أثناء سفرهم كما حدث لسلمان الفارسي - ﷺ .

وعموما كانت تجارة الرقيق منتشرة بين القبائل تتخذ منها مصدرا للربح كسائر التجارة . وقد ضمن لهم الإسلام حقوقهم ، ونظم علاقاتهم بسادتهم تنظيما إنسانيا عادلا ، وأتاح لهم فرصا كثيرة للعتق والتحرر بعد أن كانوا يورثون كما تورث سائر الأمتعة التي يتركها المتوفي وراءه ، بل وجدنا الإسلام يجفف منابع الرق ، فيجعل كفارة الذنوب تحرير رقبة ، وكان لأبي بكر الصديق - ﷺ - فضل كبير عند بداية الدعوة الإسلامية في شراء العبيد وتحريرهم .

ج). الموالي :

وهي الطبقة الثالثة وهم العبيد العتقاء والعرب الأحرار الذين لجأوا إلي قبيلة غير قبيلتهم . وعاشوا في حماها . وكانوا أحسن حظا من طبقة العبيد الذين كانت حياتهم سلسلة من العذاب والقهر علي يد سادة غلاظ الأكباد ؛ ولهذا كانت طبقة الموالي أسرع الطبقات دخولا في الإسلام.

أما في الحواضر فكان هناك نظام آخر للحكم فقد أجمع المؤرخون علي أن اليمن كان فيها نظام الملكية . وكانت فيها دول لها حضارات ومدنيات أشهرها مملكة سبأ التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة "سبأ" .

ولم تكن كل الحواضر تسير علي نسق واحد في الحكم . إذ نجد أن بعض المدن والقرى مثل مكة لم يكن يحكمها ملك وإنما كان يحكمها عدة رجال قسمت الأعمال بينهم . وهم أصحاب الحل والعقد علي وفق العادات والأعراف والقوانين الموروثة . وكان لهم مكان يجتمعون فيه هو ناديهم ومقر حكمهم وكان يسمي "دار الندوة" .

وأما يثرب فقد تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج . اللذان استقرا – بعد حروب كثيرة بينهما – علي أن يكون الحكم بينهما بالمناوبة . فيحكم زعيم الأوس عاما يليه في العام الثاني زعيم الخزرج . وبهذا يكون ليثرب ملك كل عام .

أما بقية المدن العربية فكان يحكمها حكام يلقبون أنفسهم بالملوك وما هم بملوك وإنما هم مشايخ مقاطعات مثل حكام حضرموت . وعلي كل حال فنوع هذه الحكومات غير معروف . ولكن كما ذكر القرآن الكريم في قصة سبأ . كان لبعض

هذه الممالك مجلس "شورى" إذ حينما قرأت ملكة سبأ كتاب سليمان – عليه السلام :-

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾[1]

وقد تأثر الشعراء بحياة القبيلة ، وكانوا لسانها الناطق وعقلها المدبر ، تفانوا في خدمتها ، وانبروا للدفاع عنها فهذا "دريد بن الصمة" قد نصح أخاه وقومه ولكنهم لم يستجيبوا له وعصوه ، ورغم ذلك ظل معهم ، وقد صور لنا ذلك في قوله :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

فلما عصوني كنت منهم وقد أري   غوايتهم وأنني غير مهتدِ

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولذلك وجدنا من أهم الأغراض التي تناولها الشعر الجاهلي الفخر بالقبيلة وبأمجادها وماضيها ، وتمجيد سادتها والإشادة بأفعالهم وخير مثال علي ذلك معلقة "عمرو بن كلثوم" التي يقول فيها :

وقد علم القبائل من معد   إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا المطعمون إذا قدرنا   وأنا المهلكون إذا ابتلينا

وأنا المانعون لما أردنا   وأنا النازلون بحيث شينا

وأنا التاركون إذا سخطنا   وأنا الآخذون إذا رضينا

وأنا العاصمون إذا أطعنا   وأنا العازمون إذا عصينا

١- سورة النمل : الآية ٧٣ .

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

وقد عظمت قبيلة "بني تغلب" هذه القصيدة رغم ما بها من مبالغة حتى كانت سببا في هجائهم :

ألهى بني تغلب عن كل مكْرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبدا مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم

ولم يكن فخرهم تمجيدا للقوة والبطش والجبروت فقط وإنما كانوا يفخرون أيضاً بالمثل العليا والقيم النبيلة مثل : الكرم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاجين فهذا حاتم الطائي يوزع ما عنده ويبيت علي الطوى :

أما والذي لا يعلم الغيب غيره ويحيى العظام البيض وهي رميم

لقد كنت أطوى البطن والزاد يُشتهي مخافة يوما أن يُقال : لئيم

ولنتأمل فحوى تكريم النبي ﷺ لابنة حاتم الطائي عندما وقعت في الأسر.

ولم يكتف الشعراء بالفخر بقبيلتهم بل قاموا بوصف المعارك التي كانت تدور بين قبيلتهم وغيرها من القبائل ، فالجفاف والجدب وندرة المياه ، وقسوة الحياة ، جعلت العربي دائب السعي للبحث عن موارد المياه ، ومواطن الكلأ ، وبالتالي كانت القبائل في حل وترحال وراء الماء والكلأ ، ومن يقرأ وصف "المثقب العبدي" لناقته يري ذلك :

إذا ما قمت أرحلها بليل ... تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حل وارتحال ... أما يبقي علي وما يقيني

وهكذا كانت عوامل الطبيعة القاسية وراء الهجرات الكثيرة داخل الجزيرة العربية وخارجها ، بل وأيضاً وراء كثرة الحروب بين القبائل ، ويعد زهير بن أبي سلمى من أبرز الدعاة إلي السلم وتجنب الحروب ؛ فقد قدم الكثير من النصح لقومهمبينا ما تجره الحروب من خراب ودمار .

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجمِ

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضرمتموها فتضرمِ

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئمِ

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم يرضع فتفطم

وكما كان هناك من يدعو إلي السلم ، كان هناك من يدعو إلي الثأر ، فمن كان له ثأر يحرم علي نفسه الطيب وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، والاغتسال ، والقرب من النساء وخير من صور لنا ذلك المهلهل بن ربيعه حيث قال :

خذ العهد الأكيد علي عمري ... بتركي كل ما حوت الديارُ

وهجري الغانيات وشرب كأس ... ولبسي جبة لا تستعارُ

ولست بخالع درعي وسيفي ... إلي أن يخلع الليل النهارُ

وإلا أن تبيد سراة بكر ... فلا يبقي لهم أبدا قرارُ

وقد عرف العرب في الجاهلية نظام الأحلاف . وقد كان للأحداث الدامية والحروب الطويلة التي ذكرناها سابقا الباعث الأول نحو تحقيق هذه الأحلاف وبهذا تزداد القبيلة الضعيفة قوة بالتحالف مع القبيلة القوية ، وإذا كانت هذه الأحلاف قد ساعدت علي التوحيد بين القبائل أحياناً ، فإنها في الوقت ذاته كانت عاملا من عوامل تشتيت المجتمع العربي إذا لم تتجاوز غالبا القبيلتين . وقد كانت هذه الأحلاف تتم في مواسم وطقوس تشبه الطقوس الدينية فمن ذلك حلف "المطيبين" الذي عقد بمكة بين بني عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بني عبد الدار بن قصي ، وإجماعهم علي أخذ ما بأيدي بني عبد الدار ، فأخرج بنو عبد الدار جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا ، وتعاهدوا مع حلفائهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم فسموا "المطيبين" ومن أعظم تلك الأحلاف حلف "الفضول" الذي قام من أجل إرساء العدل ونصرة الحق.

ومن الطقوس عندهم عند توثيق الحلف غمس الأيدي في الدم ، وكان الحليف يتمتع بمكانة كبيرة حتى أنه كان يعد فردا من أفراد القبيلة ؛ ولذا كان المجير يرثه في ماله ويحميه من الأعداء .

ومع ما في هذه الفترة من تناقضات إلا أن المرأة قد نالت قدرا كبيرا من احترام الرجال ، وقد اشتهر العربي بالغيرة علي نسائه ، وقد تزينت المرأة بالملابس القطنية والصوفية والحريرية ، واشتركت في المسائل السياسية . فقد عارضت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان النبي ﷺ والدين الجديد ، بل وشاركت وأترابها في غزوة أُحد ضد المسلمين . وكان لها دور كبير في قتل حمزة ﷺ بل والأكثر أنها حمست

فرسان قريش بالغناء لهم ، ومن ذلك ما يروى أن هند بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن الدفوف في غزوة أُحد ، وكانت هند تغني مقطوعات حماسية تثير نخوة القوم وتشحذ هممهم من ذلك قولها :

إن تقبلـــــوا نعـــــانق ونفــــــرش النمــــــارق[1]

وإن تــــــدبروا نفــــــارق فــــــراق غــــير وامــــق[2]

كما لعبت أم جميل زوج أبي لهب دورها الخطير في محاربة الإسلام فجعلت ابنيها يُطلقان بنتى النبي ﷺ حتى ينشغل بمشاكله الخاصة عن رسالته السامية .

ولم تكن عادة وأد البنات متبعة عند جميع العرب في الجاهلية ، بل كانت مقصورة علي بعض قبائل ربيعة وكندة وطئ وتميم ،

ولم يقتصر دور المرأة علي الجوانب السياسية والاقتصادية بل امتد ليشمل جانب التوجيه والتعليم ومن يقرأ وصية أمامه بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها يدرك عمق تفكير المرأة في هذا الزمان .

ثالثاً : الجانب الاقتصادي :

اتسعت تجارة الجزيرة العربية لموقعها المتوسط بين معظم الدول ففي شمالها الشرقي تقع بلاد فارس ، وفي شمالها الغربي تقع بلاد الروم ، وفي جنوبها الشرقي تقع بلاد الحبشة ، وقد مارس سكان الجزيرة العربية التجارة ، واستعانوا زمنا طويلا لبيع سلعهم بالفينيقيين ،

(١) النمارق : مفردها نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .
(٢) وامـق : محب

وقد تنافس العرب والبابليون في الاتجار مع الهند ؛ بذلك لم تقتصر تجارة العرب علي جزيرتهم فحسب ، بل امتدت إلي دول العالم المعروفة في زمنهم ، وكانت مكة مدينة تجارية من الطراز الأول ، وقد شغلت دول العرب القديمة مثل تدمر وسبأ ومعين المراكز التجارية الممتازة في تجارة الشرق ، وقد استفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية علي جانب كبير من الأهمية ، وساعد اشتغالهم بالتجارة ، وكثرة أسفارهم إلي الشام والحبشة ومصر وبلاد الفرس ، وبلاد الروم علي معرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية مما كان له الأثر الكبير في تثقيف عقولهم ، ورقي مداركهم ، بل إن هذه الأسفار ساعدت علي معرفة بعضهم الكتابة والقراءة والحساب ، بل وساعدت بعض الشعراء علي تأثرهم بثقافات هذه البلاد فعمقت أفكارهم ، ورقت ألفاظهم، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الأعشى ، والنابغة الذبياني .

وقد أثر دور الكعبة الديني وما أحيط بها من أصنام علي جعل مكة الخيط الذي يربط كل القبائل العربية . وجعل لها مركز الزعامة والريادة .

رابعاً : الجانب السياسي :

كان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة الأمير أو شيخ القبيلة في وقت الحرب ، وقد كثرت الحروب بين القبائل العربية في الجاهلية بسبب السيادة أو التسابق علي موارد الماء ، ومنابت الكلأ ، أو بسبب الثأر ، وبسبب كل ذلك وقعت بينهم حروب كثيرة عرفت بأيام العرب من أشهرها :-

١-*حرب البسوس* : وقد كانت بين قبيلتي بكر وتغلب ودامت أربعين عاما بسبب ناقة كانت تملكها امرأة من بكر تسمي "الباسوس".

٢- *حرب داحس والغبراء* ، وقد قامت بين عبس وذبيان وكان السبب فيها رهان علي سباق بين جوادين بهذا الاسم.

٣- *أيام الفجار* ، وقد حدثت في الأشهر الحرم ؛ لذا أطلق عليها هذا الاسم ، وقد كان الفجار الأول بين قبيلتي كنانة وهوازن ، والفجار الثاني بين قبيلتي قريش وهوازن ، والفجار الثالث بين كنانة وهوازن ، والفجار الرابع بين قريش وكنانة من ناحية وهوازن من ناحية أخري.

٤- *وقعة ذي قار* ، وكانت بين العرب والفرس ، وقد عبر الأعشى في قصائده عن نصر العرب علي الفرس في هذه المعركة التي تعد أول انتصار للعرب حتى قيل إن الأعشى ساعد علي نشوب هذه الموقعة.

وقد انعكست هذه الحروب علي أشعار الشعراء العرب الذين عبروا عنها ، وعملوا علي وصفها ، وقد ظهر في هذه الفترة شعراء تباهوا بقوتهم وفروسيتهم ودورهم في حماية القبيلة ، والزود عنها ، والثأر من أعدائها ، ومن هؤلاء الشعراء المهلهل بن ربيعة ، وعنترة بن شداد ، وغيرهما من الشعراء الفرسان ، الذين كانوا لا يترددون في حماية الضعيف أو تلبية دعوة المكروبين . يقول قريط بن أنيف :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات علي ما قال برهانا

ويصور الحطيئة في شعره تأصل هذه القيم التي تقف كالدرع الواقي أمام طبيعة قاسية وبيئة متحجرة :

وفتيان صدق من عدى عليهم صفائح بصرى علقت بالعواتقِ

إذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهم ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافقِ

وطاروا إلي الجرد العتاق فألجموا وشدوا علي أوساطهم بالمناطقِ

أحلوا حياض المجد فوق جباهم مكان النواصي من وجوه السوابقِ

وهكذا لو تتبعنا النظم والأصول التي وضعها العربي لحياته وما نتج عنها من سلوك نجد كل ذلك نتيجة طبيعية وحتمية لتلك الخصائص المناخية والإقليمية ؛ ولذلك سيطر علي العربي الإحساس بالقوة ، وتمجيد معاني البطولة ، والفداء ، والتضحية ، ونكران الذات ؛ لذلك لم تتوقف نغمات الحماسة والبطولة في القصيدة الجاهلية مهما كان غرضها أو مناسبتها الشعرية ، وقد انعكس ذلك في بنية القصيدة وفي موضوعاتها ، فالبيئة الصحراوية أوحت للشاعر الجاهلي شكل القصيدة وموضوعاتها ، وفرضت علي العربي بما فيها من جدب وجفاف ووعورة الحياة الهجرة والارتحال من مكان إلي آخر بحثا عن مواطن الكلأ ، ومنابع الماء ، فهو يقيم في المكان حتي إذا جف نباته ، وغاض ماؤه ، بدأ الارتحال من جديد إلي مكان آخر من أجل البقاء والمحافظة علي الحياة ، وأثناء ارتحاله يمر علي دياره التي كانت سكن الأهل والأحبة فيجدها قد انمحت معالمها ، وخلت من سكانها وسادت الوحشة فيها فتغيرت معالمها وعمّها الخراب والفناء ، فيدخل في نفسه إحساس بالوحشة ، وشعور بزوال الحياة ، ويمر بخياله شريط الذكريات التي عاشت في ذهنه

فحفظ لها أجمل الأوقات . فتنحدر الدموع ألما وحسرة ولا غرابة بعد ذلك إذا وجدنا الشاعر الجاهلي يُبرز ذاتيته ويُفرغ شخصيته محاولا إثبات وجوده المبعثر في هذه الصحراء ؛ وبالتالي انعكست كل هذه الأمور في شكل القصيدة فهو يبدأ بالوقوف علي الأطلال ثم ينتقل إلي ما يتعلق بها من ذكريات تثير عواطفه . ثم يتخذ من ناقته وسيلة لإمضاء الهمّ ، وتسلية الحزن ، وتبديد الألم ، وجسرا يستطيع استخدامه للوصول إلي غايته ؛ ولهذا أسهب شعراء العصر الجاهلي في وصف الناقة ، والمتطلع في تلك الأوصاف يجد انسياب الصورة الشعرية للناقة بشكل موحد ، مما يدل علي وجود اتفاق فني شكلا ومضمونا ، ثم يصل الشاعر في النهاية إلي الغرض الذي من أجله أنشأ القصيدة ، وهذا لا يعني أن القصيدة الجاهلية مفككة الأوصال فهي متحدة إتحادا فنيا سواء كان ذلك في شعر الحرب أم في شعر الغزل والفخر والهجاء والوصف أم في سائر أغراض القصيدة الأخري ، وفي شعر الحرب نجد البطولة متأصلة في نفس العربي حتي أننا نجد أن عنترة بن شداد لم ينسبه شداد إليه إلا بعد ما أظهره من شجاعة في ميدان القتال ، وقد أشار إلي ذلك عنترة حين قال :

إني امرؤ من خير عبس منصبا   شطري وأحمي سائري بالمنصلِ

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت   ألفيت خيرا من معم مخولِ

بكرت تخوفني الحتوف كأنني   أصبحت من غرض الحتوف بمعزلِ

فأجبتها إن المنية منهل   لابد أن أسقي بكأس المنهلِ

فاقني حياءك لا أبالك وأعلمي   أني امرؤ سأموت إن لم أقتلِ

إن المنيـــة لـــو تمثــل مثلــت مثلــى إذا نزلــوا بضــنك المنــزلِ

والخيــل ســاهمة الوجـوه كأنمــا تســقي فوارسـها نقيــع الحنظــلِ

وفي قصيدة أخرى يقول :

هلا سألت القوم يا ابنة مالك إن كنـت جاهلـة بمـا لم تعلمـي

يخبرك من حضر الوقيعة أنني أغشي الـوغى وأعـف عنـد المغنم

ومن صور شعر الحرب أيضاً قصيدة :

"عمرو بن كلثوم" التي يبدؤها بقوله :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقـــي خمـــور الأنـــدرينا

والقصيدة مليئة بالبطولة :

نطاعن ما تراخي الناس عنا ونضـرب بالسيوف إذا غشينا

نشق بهـا رؤوس القـوم شـقا ونخليهـــا الرقـــاب فيختلينـــا

تخـال جمـاجم الأبطـال فيهـا وســـوقا بالأمـــاعز يرتمينــــا

تخـــر رؤوســـهم في غـــير بـــرّ فمـــا يـــدرون مـــاذا يتقونـــا

كـــأن ســـيوفنا فينــا وفــيهم مخـــاريقٌ بأيـــدي لا عبينــــا

كـــأن ثيابنـــا منـــا ومـــنهم خضـــبن بـــأرجوان أو طلينـــا

لقد فرضت البيئة علي العربي القتال ، وأصبح مفطورا عليه ، ولم تقتصر البطولة عليه ، فقد شاركته المرأة في تلك البطولات فكن يخرجن مع المقاتلين يسقين الجيش وينشدن الأهازيج الحماسية التي تحث علي القتال ، ويضمدن الجراح ، وقد عبر عن ذلك "عمرو بن كلثوم" في معلقته المشهورة :

علي آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن علي بعولتهن عهدا إذا لاقوا كتائب معلمينا

يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

والدفاع عن المرأة ، ومنع الأعداء من الوصول إليها ، وإنقاذ السبايا من الأعمال البطولية للفارس العربي ، وهذا "عمرو بن معديكرب" لم يتمالك نفسه عندما رأي نساء قومه يجرين خائفات مذعورات أثناء معركة من المعارك فيهجم علي رئيس الأعداد مندفعا لمنازلته قائلا :-

أعددت للحدثان سا بغة وعداء علندى(١)

نهدا وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا(٢)

وعلمت أني يوم ذاك منازل كعبا ونهدا

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا(٣)

وبدت لميس كأنها بدر السماء إذا تبدى(٤)

١- علندي : ضخم
٢- نهدا : فرسا غليظا
٣- المعزاء : الأرض الصلبة
٤- تبدى : ظهر

وبدت محاسنها التي تخفي وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا[1]
هم ينذرون دمى وأنذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بوأته بيدى لحدا
ما إن جزعت ، ولا هلعت ، ولا يرد بكاى زندا

ورغم أن زهير بن أبي سلمي كان ينصح قومه ويدعوهم إلي الصلح وينفرهم من الحرب إلا أنه كان لسان قومه وقت الحروب فيمدحهم ويتحدث عن شجاعتهم قائلا :

إذا فزعوا طاروا إلي مستغيثهم طوال الرماح لا ضعاف ولا عزلُ
بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا
وإن يقتلوا فيشتفي بدمائهم وكانوا قديما من مناياهم القتلُ

ولنتأمل حياة "النابغة الذبياني" فقد قضي حياته متفانيا في خدمة قومه ، ومدافعا عنهم عند الملوك نظرا لموقع قبيلته من ملوك غسان والحيرة ، فكم مدح هؤلاء الملوك واعتذر لهم من أجل قبيلته . فعندما عرف بعزم النعمان علي غزو قبيلة "بني حن" حاول أن يمنعه . ونهاه عن ذلك ، فلما لم ينته النعمان عن ذلك أنبأ قومه بالخبر ودعاهم للاشتراك مع "بنى حن" في غزو النعمان ، واستطاعوا معا أن ينتصروا عليه ، وشعر النابغة أن في ذلك نصرا لقومه ، وأخذا بثأرهم في يوم "ذى أقر" ؛ لقد قدم النابغة هذه الأخبار وتلك النصيحة وهو في بلاط النعمان مضحياً

١ـ الكبش : رئيس القوم

بمصلحته الشخصية من أجل مصلحة القبيلة ، وحين وقعت نساء قبيلته أسري في يد الأعداء نراه حزيناً مهموما يسعي لدي الغساسنة ويمدحهم حتي يرفعوا أيديهم عن قومه ، ويطلقوا من أسروه ، ومن هذه المدائح قصيدته البائية التي تقطر أسي وحزنا والتي يقول فيها :

كليني لهمّ يا أميمة ناصبٍ   وليل أقاسيه بطيئ الكواكب[1]

تطاول حتى قلت ليس بمنقض   وليس الذي يرعى النجوم بآيب

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب[2]

ثم يمدح الغساسنة بقوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدي بعصائب[3]

وكان من نتيجة هذا المدح أن أطلق الغساسنة أسرى قومه .

لقد كرس النابغة حياته وشعره في خدمة قبيلته ، واحتلت شئونها وسياستها وحروبها جزءا كبيرا من شعره وتفكيره ، وإن كان يدعو إلي السلام من أجل مصلحة قبيلته إلا إنه يري من واجبه الدفاع عنها إذا ما أعتدى أحد عليها .

إن هذه الأمثلة العديدة المختلفة تصور لنا موقف الشاعر الجاهلي البطولي من قبيلته فهو يدافع عنها بشتى الوسائل ويضحى من أجلها بكل شئ كي يعلو شأنها ، ويرتفع قدرها ، ومن هنا وجدنا القبيلة تعتز بشاعرها أكثر من اعتزازها

---

(١) ناصب : متعب   بطئ الكواكب : لا تغور كواكبه

(٢) أراح الهم : رده إليه

(٣) عصائب : جماعات

بفارسها ؛ لحاجة القبيلة إلي قيادة وجدانية تبث في أبنائها روح المروءة والنجدة، وإباء الضيم والكرم والشجاعة ، فما بالنا إذا كان الشاعر فارسا كامرئ القيس أو عنترة بن شداد ، أو المهلهل بن ربيعة ، أو عمرو بن كلثوم ، أو عمرو بن معد يكرب.إن المتتبع للقبائل العربية ، والمتتبع للنصوص التي أوردناها يري أن وظيفة الشاعر في قبيلته من أخطر وظائف الزعامة والقيادة وهو وضع قضت به ظروف البيئة وظروف الحياة .

منهج القصيدة الجاهلية

من يقرأ دواوين الشعر الجاهلي يجد أنها ضربان :

- الضرب الأول : قصائد طويلة كاملة تعالج موضوعات متعددة وهي بذلك تعبر عن عدة تجارب تكون مرتبطة أحيانا ومفككة أحياناً أخري ، وهذا النوع من الشعر اهتمت به الدراسات الأدبية قديما وحديثا وأهم هذه المطولات المعلقات السبع .
- الضرب الثاني :

قصائد قصيرة ومقطعات صغيرة تتوفر فيها التجربة الشعورية الكاملة ، وتصور الحياة الجاهلية تصويرا صادقا ؛ لأن هذه المقطوعات أو القصائد القصيرة تجارب صادقة لخفقات قلب الشاعر فهي لم تصدر عن تكلف أو صناعة .

ومن هنا ينصب حديثنا علي القصائد الطويلة ذات الموضوعات المتعددة التي تسير علي نظام موروث سنهُ متقدمو العصر الجاهلي ومن تبعهم من الشعراء فيما بعد .

والقصائد الطويلة تبدأ عادة بوصف الأطلال ، وبكاء الدمن ، ثم تنتقل إلي وصف الناقة وصفا دقيقا فهو لم يترك فيها شيئًا إلا وصفه ، ثم يخرج بعد ذلك إلي الغرض من القصيدة سواء كان الغرض مدحا أم هجاء أم غيرهما ، وقد سار علي هذا النهج المتأخرون من شعراء صدر الإسلام وتبعهم كثير من شعراء العصرين الأموى والعباسي .

وتمهيد الشاعر بالمقدمة الطللية يمثل جزءا من حياة الشاعر ففيها صباه وحياته مع أصحابه رأترابه ، وفيها يتحدث عن محبوبته ، وكيف رحلت مع أهلها ، يتذكر هذه الأشياء فيشعر بالأسي والحزن ، وتقطر من عينيه الدموع ، وسرعان ما يتذكر أن هذه سنة الحياة ، فيثوب إلي رشده ، ويركب ناقته التي يعتمد عليها في رحلته ؛ ولذلك أصبحت الناقة وسيلته في الحل والترحال .

وفي الرحلة تقابله مشاهد كثيرة تعج بها الصحراء ، فليلها مظلم ونهارها حارق ، وأمطارها تجرف أمامها كل شئ ، وهو في رحلته أيضاً يري مشاهد مبهجة ، فالصحراء يغطيها الكلأ والزهور الجميلة ، ترتع فوقها الحيوانات من الحمر الوحشية والوعول والغزلان ، فكأنه يضع في مقدمته الطلليه فلسفته في الحياة فهو فيها يشبع حاسته الفنية من رسم اللوحات التي تنبض بالحياة وتعج بالحركة ، وتنطق بما فيها من جمال ، ثم ينتقل الشاعر كما ذكرنا إلي الغرض الأصلي للقصيدة ، وهو في كل ذلك يصف ما يقع تحت عينيه ، وينثر حكمته وتجاربه في الحياة .

وقد سار الشعر علي هذا النمط في العصر الجاهلي المتأخر ، وفي الدولة الأموية حتى قرب نهايتها ، وكانت صور القصائد تسير علي نمط واحد مما جعل النقاد يحللون القصائد علي مقتضي هذا الأمر ، ويجعلون الخروج علي نمط القصيدة العمودية معيبا .

ومع ذلك فالقصيدة الجاهلية كانت أول الأمر موضوعا واحدا ثم مع البعد الزمني فقدت طريقة الوصل بين أجزائها وانعدم القسم المهيئ في القصيدة للانتقال




من موضوع إلي موضوع ، ومن هنا جاءت مقولة أن القصيدة الجاهلية مفككة الأوصال غير مترابطة الأجزاء ؛ لأننا لو غيرنا ترتيب الأجزاء أو الأبيات لا يتغير المعني العام للقصيدة ؛ لأن كل بيت فيها مستقل بنفسه ، قائم بذاته ، وقد علل البعض هذا الأمر بكتابة القصيدة علي مراحل زمنية متفاوتة ، واستشهدوا علي ذلك بحوليات زهير بن أبي سلمى .

وقد استجاد العرب بعض القصائد الطوال سميت بالمعلقات ؛ وذلك لجمال أسلوبها ، وروعة صياغتها ، وتنوع أغراضها ومن أصحاب هذه المعلقات :

أمرؤ القيس وزهير بن أبي سلمي وعنترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ، ولبيد بن ربيعة وقد سجلت هذه المعلقات الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية للعرب الجاهليين .

بناء القصيدة الجاهلية

أولاً : المقدمة الطللية :

يري الباحثون أن أوليات الشعر العربي ضاعت واندثرت وهذه مشكلة الأشعار العالمية ، ومن الطبيعي أن تضيع هذه المقدمات ويجانبنا الصواب إذا بحثنا عن تلك المقدمات في دور طفولتها ، وعلي كل فاللوحة الطللية تعد من أهم الموضوعات التي ترددت في القصيدة الجاهلية ، إذ يعد الطلل بداية المرحلة الشعورية التي تمر من خلالها أحاسيس الشاعر وتجربته ، ثم تتدفق بعد ذلك أفكاره مكونة أجزاء القصيدة ، وقد اهتم الشعراء بهذه المقدمات لارتباطها الوثيق بإنسانية الشاعر ، وصراعه مع الطبيعة من أجل المحافظة علي الحياة .

وكانت أول محاولة لتفسير بدء القصيدة بالحديث عن الأطلال علي يد ابن قتيبه إذ يقول : "إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الريح ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، ثم يصل ذلك بالنسيب فيشتكي شدة الوجد ، وألم الفراق ؛ ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل ، وحر

الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه أوجب علي صاحبه حق الرجاء ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المدبح فبعثه علي المكافأة ، وهزه للسماع ، وفضله علي الأشياء" .

وقد حاول ابن رشيق تفسير هذه الظاهرة أيضاً ، إلا أنه لم يضف علي سابقه شيئا .وما ذكره الاثنان من تعليل لا ينهض وحده بالكشف عن الأسباب الحقيقية وراء تلك المقدمات الطللية ، ولا نجد أحدا تكسب بشعره في العصر الجاهلي سوى الحطيئة والأعشى ، أما النابغة الذبياني فكانت مدائحه واعتذارياته في سبيل الدفاع عن قومه ، كذلك لم تكن القصائد الطويلة التي بدئت بالمقدمات الطللية تختص بالمدح وحده ، وإنما كانت تتصل بالفخر والهجاء والوصف وفنون الشعر الأخري .

"والواقع أن وقوف الشاعر الجاهلي عند أطلال أحبته أو بكاء دياره التي هجرها ، أو اضطر إلي هجرها لم يكن غريبا ؛ لأن الطلل عنده قطعة من الحياة التي تهرم ، كلما مضي منها جزء لا يستطيع الإنسان رده مهما حاول ، فكأن البكاء علي الطلل أصبح يعني البكاء علي الحياة نفسها" (١)

إن المتتبع للمقدمات الطللية في العصر الجاهلي سوف يلحظ الصراع بين الحياة والموت . يقول امرؤ القيس :

ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي   وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهل يعمن إلا سعيد مخلد   قليل الهموم ما يبيت بأوجال

(١) دكتور نوري القيس : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية صـ ١٠

ويقول في معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوي بين الدخول فحومل[١]
فتوضح والمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمأل[٢]
ترى بعر الآرام في عرصاتها	وقيعانها كأنه حب فلفل[٣]
كأني غداة البين حين تحملوا	لدي سمرات الحي ناقف حنظل[٤]
وقوفا بها صحبى علي مطيهم	يقولون لا تهلك أسي وتجمل[٥]
وأن شفائي عبرة مهراقة	وهل عند رسم دارس من معول[٦]
كدينك من أم الحويرث قبلها	وجاراتها أم الرباب بمأسل[٧]
ففاضت دموع العين مني صبابة	على النحر حتى بل دمعي محملي

إن نظرة فاحصة في تلك الأبيات ترينا الشاعر واقفا علي الأطلال الدارسة يبكي عليها ويطلب من صاحبيه مشاركته في هذا الأمر سواء كان الصاحبان

---

(١) السقط : منقطع الرمل — اللوى : حيث يلتوى الرمل ويرق

(٢) توضح والمقراة : موضعان — لم يعف رسمها : لم تندثر آثارها

نسجتها : تعاقبت عليها

(٣) الآرام : الظباء

(٤) السمرات : نوع من الشجر — ناقف حنظل : الذي يستخرج حبه

(٥) المطي : الإبل — وقف الدابة : حبسها

(٦) مهراقة : مسفوحة — معول : من العويل والبكاء

(٧) الدين : العادة — مأسل : اسم موضع

حقيقيين أم انتزعهما الشاعر من خياله ، ثم يتحدث عن الظباء التي انتشرت هنا وهناك تملأ المكان وتجعله يضج بالحياة ، ..

ونحن في قصيدة "امرؤ القيس" نرى صورتين تسيران جنبا إلي جنب : صورة الديار وقد لفها الخراب ، ثم صورتها وقد بعثت فيها الحياة بعد أن سكنتها الظباء . والأبيات من روائع الشعر الجاهلي لبساطة صورها ، وسهولة ألفاظها ، وعدم غوصها وراء الخيال ، والتشبيهات البعيدة ، فالتشبيهات التي ساقها الشاعر واضحة مأخوذة من البيئة العربية .

إن لوحة الطلل بكل صورها وألوانها تمنح الشاعر القدرة علي الكلام ؛ لأنه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة تمده بالمشاعر والأفكار ، فلا غرابة إذا وجدنا الشاعر الجاهلي يحاول إثبات وجوده المبعثر في الصحراء .

يقول طرفة بن العبد في مطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلدِ

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من ددِ[1]

عدولية أو من سفين ابن يا من يجور بها الملاح طورا ويهتدي[2]

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد[3]

---

(١) الحدوج : مراكب النساء — الخلايا : السفن
النواصف : الشعاب — دد : واد
(٢) عدولية : قرية بالبحرين — ابن يا من : ملاح من البحرين — يجور : يميل
(٣) حباب الماء : أمواجه — الحيزوم : الصدر
المفايل : لعب الأطفال

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد[1]

خذول تراعي ربربا بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي[2]

وتبسم من ألمى كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ندى[3]

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد

وبذلك نري أن المتتبع للمقدمات الطللية ، والصور التي وضعها بها الشاعر الجاهلي يجدها تعكس الحالات النفسية التي كانت تدور في ذهن الشاعر ، وترسم لنا المعاناة التي يعانيها والتي لم يجد لها حلا إلا الوقوف علي الأطلال متسائلا متعجباً من هذه الديار ، كيف كانت ؟ وكيف أصبحت ؟ ورغم الصورة القائمة لا يستسلم الشاعر لهذا الخراب ، بل يتشبث بالحياة وبهجتها ، فيصف صاحبته وصفا رائعا ينبض بالحياة .

إن البكاء علي الطلل أصبح جزءا من القصيدة مهما كان موضوعها ؛ لأن الطلل عندهم قطعة من الحياة التي تهرم مع مرور الزمن ، وهي لوحة تمهد لموضوعات القصيدة ، وتمثل صياغتها ، وعلي هذا الدرب سارت المقدمات الطللية إلا في القليل النادر ، فإذا انتقلنا إلي أكبر شعراء الصنعة في الشعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى ، وقرأنا المقدمات الطللية في شعره ، فستقابلنا نفس الظاهرة ، فهو يطيل الوقوف عند هذه المقدمات الطللية ، ويعني بتصويرها ؛ لأنه فنان يعرف دقة الكلمة التي تلائم وصفه ، فمن يقرأ معلقته المشهورة يلمس هذا بوضوح ، فقد قسم المقدمة

١- أحوى : في شفتيه حمرة تضرب إلي السواد
المرد : ثمر الأراك ، الشادن : الغزال الذي قوى واشتد .
٢- خذول : متفردة البربر : ثمر الأراك.
٣- المنور : الأقحوان

الطللية إلي قسمين : قسم وقف فيه علي الأطلال بما فيها من خراب ودمار ، وقسم آخر زاه متعلقاً بالحياة ، يقول زهير :-

أمــن أم أوفــى دمنــة لم تكلــم	بحومانـــة الـــدراج فـــالمتثلمِ
ديــار لهــا بــالرقمتين كأنهــا	مراجيــع وشــم في نواشــر معصــمِ [1]
بهــا العــين والآرام يمشــين خلفــة	وأطلاؤهـا ينهضـن مـن كـل مجـثمِ [2]
وقفـت بهـا مـن بعـد عشرين حجـة	فلأيـا عرفـت الـدار بعـد تـوهمِ [3]
أثــافى ســفعا في معــرش مرجــل	ونؤيــا كجــذم الحــوض لم يتــثلم [4]
ــــا عرفــت الــدار قلــت لربعهــا	ألا عــم صـباحا أيهــا الربــع وأسـلم

ثانياً : وصف الناقة :

رمزت المقدمات الطللية إلي الصراع بين البقاء والفناء ، وكان أمرا طبيعيا الانتقال إلي وصف الناقة فهي وسيلة الشاعر في رحلته عبر الصحراء ، فهو دائم السعي للبحث عن الماء والكلأ صونا لحياته من الموت ، وليس هناك أقدر من الناقة علي صحبة البدوى التي تلازمه في حلّه وترحاله ، والارتحال من طبيعته أن يفرق بين الأحبة والصحاب ، مما يجعل الشاعرحزيناً باكيا ، وهنا لا يري منجاة من ألمه وحزنه سوى أن يعلو ظهر ناقته فيسرع عليها للفرار من الديار المهجورة التي ذكّرته بمراتع الصبا وفراق الأحباب .

1- مراجيع : جمع مرجوع وهو المجدد — النواشر : العروق.
2- خلفــه : يذهب شئ ويجئ شئ — الأطلاء : الأولاد .
3- اللأي : الجهد والبطء.
4- الأثــافي : حجارة يوضع عليها القدر — السفـع : السود
التعريش : مكان النزول — النـؤى : نهر يحفر حول البيت.

والشاعر الجاهلي عندما يقف علي ديار الأحبة ويتحدث عن حزنه لفراقهم والحنين إليهم ، لا يثنيه ذلك عن هدفه الحقيقي ، وهو السعي إلي المجد وخوض مجاهل الحياة والانتصار عليها ؛ ولذلك كان الانتقال إلي الناقة معينا له علي مجابهة الحياة .

يقول طرفة بن العبد :-[1]

وإني لأمضي الهمّ عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

والانتقال إلي الناقة أمر ضروري دعت إليه ، تلك الخيبة التي أصابت الشاعر عندما وقف علي دياره الخاوية من كل معالم الحياة ، وهو عندما ينهي وقفته يبدأ رحلته متخذا من الناقة وسيلة لإمضاء الهمّ ، وجسرا للوصول إلي غايته ؛ لأن الشاعر البدوي بحكم ظروف البيئة قد وطّن نفسه علي مجابهة الحياة، والانتصار عليها ؛ لهذا كان يركب ناقته القوية ضاريا في الصحراء بقوة وعزم ،تعكس صلابة الناقة صلابته ، وتبين قوتها مدى قوته ، وبذلك لم يكن الانتقال من الوقوف علي الأطلال إلي وصف الناقة مفتعلا ، وإنما الكثرة الكاثرة من الشعراء كانت تتخلص تخلصا رائعا عندما تنتقل من المقدمة الطللية إلي وصف الناقة .

يقول عبيد بن الأبرص :

وحنت قلوصي بعد وهن وهاجها   مع الشوق يوما بالحجاز وميض[2]

فقلت لها : لا تضجري إن منزلا   نأتني به هند إليّ بغيضُ

١- ديوانه ص٢٦

٢- قلوصي : ناقتي



ويقول لبيد في معلقته التي أحسن التخلص فيها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولشر واصل خلة صرّامها [١]

واحبُ المجامل بالجزيل وصرمه   باق إذا ضلعت وزاغ قوامها [٢]

بالنظر إلي الأبيات نجد أن لبيدا استطاع أن يهيئ الانتقال من المقدمة الطللية إلي وصف الناقة بطريقة جعلتنا لا نحس بهذه النقلة ، بل وشعرنا أن الانتقال كان أمرا طبيعيا اقتضاه التدرج الذي سارت عليه أبيات القصيدة .

وقد خلع البدوى صفات القوة والبطولة علي ناقته فهو يصفها بالصلابة والقوة والامتلاء والضخامة والشدة ، والسرعة ، والصبر ، والنشاط ، والقدرة علي تحمل المشاق ، وقد دارت هذه الصفات حول إطار لغوى واحد فهو يسميها بالجسرة، والناجية والحرف والوجناء والجمالية والشملال ، والأمون ، وذات اللوث ، والقلوص ، والعرمس ، والجلالة والطليح ، والأجد ، ولو نظرنا إلي معلقة طرفة نجده بعد أن يفرغ من مقدمته الغزلية يرتحل علي ناقته ليزيل ما نزل به من هم ، وليبدد ما أصابه من حزن .

يقول طرفة به العبد :[٣]

وإنى لأمضي الهمّ عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

ثم يتمثل ناقته وهي مندفعة علي الطريق الذي يشبهه بطرائق الكساء المخطط ، وهي تسابق في مشيتها إبلا كراما سريعات :

١- اللبانة : الحاجة   الصرام : القطاع

٢- ضلعت : اعوجت   زاغ : مال

٣- شرح القصائد السبع الطوال للزوزنى صـ٤٩

أمـون كـألواح الإران نسـأتها   علي لاحب كأنه ظهر برجد [1]

تُبارى عتاقا ناجيات وأتبعت   وظيفا تـراءى فـوق مـور معبد

ثم يصف الناقة وهي ترعي أيام الربيع ، وقد أختار الربيع لعودة الحياة إلي الصحراء مرة أخري :

تربعت القفين بالشول ترتعي   حـدائق مـوليّ الأسرة أغيـد [2]

ثم أخذ يصف أعضاءها عضوا عضوا :

لها فخذان أكمل النحض فيهما   كأنهـا بـاب منيـف ممـرد

ثـم يستمر طرفة في وصف هذه الأعضاء وشدتها ودقة إحكامها ، ومتانة بنيانها وسرعتها وكأنه مثال ينحت تمثالا شُغف به:

لهـا مرفقـان أفـتلان كأنمـا   تمـر بسـلمى دالج متشـددِ

كقنطـرة الرومـى أقسم ربهـا   لتكتنفـا حتـى تشـاد بقرمـدِ

وبذلك نرى طرفة ، وقد صنع تمثالا لناقته وهو كلف بهذا التمثال لذا نراه يتناوله من كل زواياه ، وتشبيهات طرفة لناقته غاية في الدقة والروعة ، وقد شبه كل عضو بما يقابله في الطبيعة وهو في وصفه اختار لناقته كل أوصاف القوة ؛ لأن الشاعر الجاهلي يعني بتحقيق الانتصار علي الحياة :

علي مثلها أمضي إذا قال صاحبي   ألا ليتنـى أفـديك منهـا وأفتـدي

وجاشت إليه النفس خوفا وخاله   مصابا ولو أمسي علي غير مرصد

١- الإران : التابوت   نسأتها : زجرتها   اللاحب : الواضح

٢- القف : ما أرتفع من الأرض   الشول : الناقة   الأسرة : طرائق من نبت

وقد شاب وصف الشاعر الجاهلي لناقته حس وعاطفة إنسانية سامية لدرجة أنه كان يسوى بين حبه لها وحبه لصاحبته . بل نقول : إنه أزال جدار العجمة بينه وبين ناقته فقدمها لنا كصديق حميم أثقله الحزن ،

يقول المثقب العبدي :

إذا ما قمت أرحلها بليل   تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني   أهذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حلّ وارتحال   أما يبقي عليّ وما يقيني

وهكذا وصف الشاعر الجاهلي ناقته التي كانت في نظره ليست مجرد حيوان ، بل هي وسيلته لمجابهة الحياة وواقعها الأليم . وهي في كل الأحوال رمز لحياته وجزء من كيانه ، وشريكته في مسراته وأحزانه ، فهي لم تكن وسيلة لإمضاء الهم ، أو وسيلته للوصول إلي الممدوح ، وإنما هي شريكة لحياته ، ..

ومن هنا كانت أحاديث الشعراء عن الناقة تؤكد قوتها ، وشدة مقاومتها للطبيعة ذات الوجه الكالح ، وقد أضفي الشعراء علي الناقة ، وعلي الحيوانات التي شبهوها بها مجموعة من الأحاسيس ، فإذا شبهوها بالحمار الوحشي جعلوه قويا يستطيع مجابهة البرد والمطر شتاء ، ولهيب الصحراء صيفا ، وكذلك مجابهة الصيادين وكلابهم . وإذا شبهوها بالبقرة الوحشية جعلوها قوية تجابه تحديات الطبيعة القاسية ، وغالبا ما يكتب النصر في النهاية للحمار أو البقرة .

ومن ذلك نعلم أن صورة الناقة ورحلتها عبر الصحراء إنما تمثل صورة لحياة العربي نفسه ، فالعربي في مجابهته ظروف الطبيعة المختلفة يناضل ، ويحارب ،

وينتصر وقد أضفي هذه الأشياء علي ناقته وعلي التشبيهات التي ساقها ليبين لنا مدي قوته وصلابته وتحديه لظروف الطبيعة القاسية ، وهو عندما يضفي عليها صفات القوة والصبر والصلابة والتحمل فكأنه يتحدث عن نفسه.

ثالثا : موضوعات القصيرة :

هناك نوعان من القصائد في الشعر الجاهلي كما بيّنا من قبل : قصائد طويلة تتعدد فيها الموضوعات ، وتسير علي نسق معين ونظام موروث ، وأخري قصيرة تتحدث في موضوع واحد وتكتمل فيها عناصر الوحدة العضوية .

وتبدأ القصيدة الطويلة بالمقدمة الطللية ، وهي ليست تمهيدا للقصيدة كما يقول بعض النقاد ، ولكنها تعبير عن أزمة الإنسان الجاهلي وخوفه من المجهول وصراعه من أجل البقاء ، وينتقل الشاعر من المقدمات الطللية إلي وصف الناقة والرحلة في الصحراء بشئ من تداعي الخواطر ، والرحلة هي سبيل الشاعر للتعزية والتسرية ، وهي ترمز إلي حياة العربي وما يواجهه من صراع ، وفي النهاية يصل الشاعر إلي غرضه الذي من أجله انشأ القصيدة سواء كان المدح أم الهجاء أم الفخر أم الرثاء أم الوصف إلي غير ذلك من الأغراض .

وبرع الشاعر الجاهلي في تلخيص تجاربه في حكم شاردة نجدها في القصائد منثورة لتدل علي فلسفته في الحياة وصراعه من أجل البقاء .

وقد أخذ شكل القصيدة نظاما ثابتا يجمعها وزن واحد ، وقافية واحدة ، وإن كان هذا نظام القصيدة الطويلة عموما ، فقد جاء بعضها علي غير هذا النسق. فقد شذت معلقة عمرو بن كلثوم علي هذا النظام ، وجاء معظم شعر الشعراء الصعاليك

خارجا عن تلك القاعدة . فقد استبدلوا المقدمة الطللية ووصف الناقة والرحلة عبر الصحراء بمحاورة النساء اللواتي يشفقن عليهن من خوض المعارك ، مثل مخاطبة "عروة بن الورد" لزوجته "سلمي بنت منذر" يحثها علي تركه وشأنه في حياة الصعلكة . يقول عروة بن الورد :

أقلي اللوم يا ابنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهرى

ذريني أم حسان إنني بها قبل أن لا أملك البيع مشترى

أحاديث تبقى ، والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة تحت صبر

وقد استبدل كثير من الشعراء الديار بالغزل والحديث عن النفس ، يقول : أوس بن حجر :

صحا قلبه عن سكرة فتأملا وكان بذكرى أم عمرو موكلا

وكان له الحين المناخ حمولة وكل امرئ رهن بما قد تحملا

ومن هذا النوع جاءت قصيدة زهير بن أبي سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

وأقصرت عما تعلمين وسددت عليّ سوى قصد السبيل معاوله

والمتبع لشعر شعراء الصعاليك يجد أنهم قد تخلصوا من المقدمات الطللية وكذلك تخلصت منها قصائد الرثاء .

أما القصائد القصار والمقطعات فقد جاءت علي أشكال مختلفة هي :

أولا : قصائد لا تكلف فيها ، ولا صنعة

ثانياً : نتائج لتجارب شعرية كاملة

ثالثا: ترجمان صادق لعواطف الشاعر، وبالتالي تميزت بالتجربة الشعورية الكاملة، والوحدة العضوية التامة.

والمتتبع أيضاً لمقدمات القصائد الطويلة، وللمقدمات الطللية يدرك أن هذه المقدمات ما هي إلا رمز لحياة البدوى وصراعه مع الطبيعة. فإذا وصلنا إلي الغرض من إنشاء القصيدة، فسوف نجد وحدة متكاملة من حيث البناء والاتصال، فالشاعر في حالة المديح غيره في الهجاء أو الوصف أو الرثاء. ففي المديح يرسم المقدمات في صورة مشرقة، واضحة المعالم، مترابطة الأجزاء بواسطة نقلات مدروسة، أما في الرثاء فيحشد صورة من كل ألوان الحزن مما يجعل السامع يحس بتلك الكآبة التي تسيطر علي القصيدة من أولها إلي آخرها، وبذلك حين تتحقق وحدة الجو النفسي تكون القصيدة مرتبطة الأجزاء وغير مفككة، وهذا الجو النفسي لا يسود المقدمات فقط ولكن يشمل القصيدة كلها.

وتظهر أغراض القصيدة في :-

(أ) المديح

مدح الشعراء الجاهليون من يستحق المديح لأعماله البطولية، أو لمحافظته علي القيم الإنسانية العليا، وندر من مدح من أجل التكسب كالأعشي والحطيئة، وقد التزم الشعراء في قصائد المديح إطارا عاما لشكل القصائد.

وإذا تتبعنا النابغة الذبياني نجده يقدم المقدمات الطللية ليصل إلي غرضه في مدح النعمان ، وفي نفس الوقت يعتذر عما رماه به الوشاة ، فيبدأ داليته بالحديث عن الأطلال فيقول :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

ثم يتخلص الشاعر بعد المقدمات الطويلة إلي غرضه الأساسي ، تخلصا بارعا لا يجعل السامع ، أو القارئ يحس بتلك النقلة فالمعاني موصول كل منها بالآخر :

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلا علي الناس في الأدنى وفي البعدِ

ولا أري أحدا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد

ثم يبين بعد ذلك خصال النعمان ، فهو في كرمه لا يدانيه أحد ، فهو يهب المائة ناقة من خير النياق ، ويعطي خيرة الخيل التي تمتاز بالسرعة والحركة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولي علي الأمد[1]

ثم نصل إلي الجزء الأخير من القصيدة وهو خاص بالاعتذار :

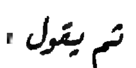
فلا عمر الذي مسحت كعبته وما هريق علي الأنصاب من جسدٍ[2]

ما قلت من سيئ مما أتيت به إذا فلا رفعت سوطى إلىّ يدى

إلا مقالة أقوام شقيت بها كانت مقالتهم قرعا علي الكبد

١- إلا لمثلك : أي لمثلك الأمد : الغاية

٢- هريق : صب الجسد : الزعفران وهو هنا الدم



ثم يقول :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني   ولا قرار على زأر من الأسد

مهلا فداء لك الأقوام كلهم   وما أثمر من مال ومن ولد

ويختتم النابغة اعتذارياته بالثناء علي النعمان وهو في ثنائه يعتز بنفسه ، وكأنه يقدم للنعمان شيئا غاليا يهديه إياه .

والقصيدة رغم اختيارنا لبعض أبياتها ، سارت علي نهج القصيدة الطويلة المتعارف عليها ، فبدأت بالوقوف علي الأطلال ، ثم انتقل الشاعر إلي وصف الناقة، وقد اختصر الجزء الخاص بالمحبوبة ، وأسهب في وصف الناقة والرحلة في الصحراء ، ثم نجده يشبه ناقته بالثور الوحشي ثم ينتقل بعد ذلك إلي غرضه الرئيسى وهو المدح ، والملاحظ أن بنية القصيدة أقرب إلي الكمال لبنية القصيدة الجاهلية الطويلة .

و في قصيدة أخري من اعتذارياته نجده يمدح النعمان دفاعا عن نفسه فالوشاة أوغروا صدر الملك عليه ، وهو بريء مما قالوا، وما يحزنه هو لوم النعمان له هذا اللوم جعله قلقا أرقا كأن فراشه يعلوه الشوك، ويقسم للملك بأن ما قاله الوشاة كذب ، ثم يتحدث عن مكانته بين الملوك والإخوان، ثم تأتي الصور التي تعكس تأثر الشاعر ببيئته فتدل على صدق حبه للنعمان ، وعلى كذب الوشاة وكيدهم ، يقول فيها :

أتاني أَبَيتَ اللَعنَ أَنَّكَ لِمتَني   وَتِلكَ الَّتي أَهتَمُّ مِنها وَأَنصَبُ

فَبِتُّ كَأَنَّ العائِداتِ فَرَشنَ لي   هَراساً بِهِ يُعلى فِراشي وَيُقشَبُ

حلَفتُ فلَم أترُك لِنَفسِكَ رِيبَةً وَلَيسَ وَراءَ اللَهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ

لَئِن كُنتَ قَد بُلِّغتَ عَنّي خِيانَةً لَمُبلِغُكَ الواشي أَغَشُّ وَأَكذَبُ

وَلَكِنَّني كُنتُ اِمرَأً لِيَ جانِبٌ مِنَ الأَرضِ فيهِ مُستَرادٌ وَمَذهَبُ

مُلوكٌ وَإِخوانٌ إِذا ما أَتَيتُهُم أُحَكَّمُ في أَموالِهِم وَأُقَرَّبُ

كَفِعلِكَ في قَومٍ أَراكَ اِصطَنَعتَهُم فَلَم تَرَهُم في شُكرِ ذَلِكَ أَذنَبوا

فَلا تَترُكَنّي بِالوَعيدِ كَأَنَّني إِلى الناسِ مَطلِيٌّ بِهِ القارُ أَجرَبُ

أَلَم تَرَ أَنَّ اللَهَ أَعطاكَ سَورَةً تَرى كُلَّ مَلكٍ دونَها يَتَذَبذَبُ

فَإِنَّكَ شَمسٌ وَالمُلوكُ كَواكِبٌ إِذا طَلَعَت لَم يَبدُ مِنهُنَّ كَوكَبُ

وَلَستَ بِمُستَبقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ عَلى شَعَثٍ أَيُّ الرِجالِ المُهَذَّبُ

فَإِن أَكُ مَظلوماً فَعَبدٌ ظَلَمتَهُ وَإِن تَكُ ذا عُتبى فَمِثلُكَ يُعتِبُ

وإذا انتقلنا إلي شاعر آخر كزهير بن أبي سلمي نجده يمدح هرم بن سنان، وهو في نفس الوقت يسلك مسلك النابغة. فيقف علي الديار، ثم يركب ناقته التي يشبهها بالناقة المسبوعة التي عدت العوادي علي ولدها. ولا تكاد تنسى آلامها حتى يطاردها الصياد وكلابه. وهي في النهاية تنتصر عليهم وهذا دأب قصائد المديح عند الشاعر الجاهلي.

يقول زهير بن أبي سلمي:

غشيت ديارا بالبقيع فثهمد دوارس قد أقوين من أم معبد

ثم يتخلص زهير إلي المديح تخلصا بارعا :

إلـي هـرم تهجيرهـا ووسـيجها   تروح من الليل التمام وتغتدى

إلي هرم سارت ثلاثا من اللوى   فـنعم مسـير الواثـق المتعمـد

والشاعر يمدح هرما لشجاعته وخصاله الحميدة :

سـواء عليـه أي حـين أتيتـه   أساعة نحس تتقي أمْ بأسعد

ألـيس بضـراب الكمـاة بسيفه   وفكـاك أغـلال الأسـير المقيـد

كليث أبي شبلين يحمى عرينه   إذا هـو لاقـي نجـدة لم يعـرد

ويمدحه أيضاً لكرمه وكثرة عطائه :

ألـيس بفيـاض يـداه غمامـة   ثمال اليتامي في السنين محمد[1]

والشاعر في البيت السابق يشبهه في كرمه بالغمامة التي يفيض خيرها علي البقاع غيثم الخير ، وهو ملجأ اليتامي فيرعاهم في سنين القحط . والمتتبع للتشبيهات التي ساقها يجد أنها مستقاة من البيئة ، وكذلك الصفات التي ساقها هي صفات البطولة الحقة ، والقيم التي قدسها العربي .

والمتتبع لقصائد المديح في العصر الجاهلي يجدها أحياناً تسير علي نسق واحد بداية من المقدمات الطللية حتى يصل الشاعر إلي غرضه ، وأحياناً تختصر المقدمات ، وأحياناً كان يكتفي بالغزل والمدح ، ففي معلقة زهير اختصر تلك

---

(١) ثمال اليتامي : يطعمهم ويقوم عليهم   السنين : الشدائد

المقدمات فلم يبق منها سوى الوقوف علي الأطلال ، وذكر الظعن ثم ينتقل مباشرة إلي المديح :

أمن أم أوفى دمنه لم تكلم بحومانة الدرّاج فالمتثلم

وفي بعض الأحيان يستبدل الشاعر الديار بالغزل ، والحديث عن النفس ، فلا يبقي من بنية القصيدة سوى الغزل والمدح كقول النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث ملك الغساسنة :

كليني لهمّ يا أميمة ناصبِ وليل أقاسيه بطيء الكواكبِ[1]

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ[2]

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانبِ[3]

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقاربِ[4]

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت كتائب من غسان غير أشائبِ[5]

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائبِ[6]

فهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم بيض رقاق المضاربِ[7]

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائبِ[8]

---

(١) كليني : اتركيني
(٢) آيب : راجع
(٣) عازب : بعيد
(٤) بذات عقارب : خالية من المن والأذى
(٥) غير أشائب : غير مختلطين
(٦) عصائب : جماعات
(٧) رقاق : قاطعة
(٨) قراع : مضاربة

وعموما كانت السمة الغالية في قصائد المديح الحرص علي المقدمات والوقوف علي الأطلال ، والحديث عن المرأة ، ثم وصف الناقة وتشبيهها بالثور أو البقرة أو الحمار الوحشي حتي يصل إلي الغرض الأساسي وهو المدح .

وكما قلنا سابقاً في المديح ينتصر الثور أو الحمار الوحشي علي الصياد وكلابه، واستمر منهج القصيدة يسير علي هذا النهج حتى نهاية العصر العباسي .

(ب): الفخر

وهو ضرب من ضروب الحماسة ، وفيه يفتخر الشاعر بنفسه أو بقومه ، وهو عندما يفخر يتغني بكل الصفات النبيلة من كرم وشجاعة ومروءة وحماية للجار ، وعراقة الأصل ، وكثرة المال والولد .

ومن يتتبع قصيدة الفخر يجد أنها مرت بالمراحل التي مر بها المديح ، فهي تبدأ بالوقوف علي الأطلال ثم ذكر المحبوبة ثم وصف الناقة وتشبيهها بالثور الوحشي والأتان والظليم ، ثم منظر الصيد ، وفشل الصياد وكلابه في اتباع ما ذكرناه ثم يصل الشاعر في النهاية إلي الغرض الأساسي وهو الفخر.

والشاعر في فخره بنفسه أو بقومه لم يترك موقفه من الحياة إذ يصور نفسه بالقوي الذي لا يقهر ، وفي نفس الوقت يعكس هذه القوة علي راحلته فيصورها قوية لا تقهر برغم الصعاب التي أحاطتها بها الطبيعة ثم يتخلص إلي الفخر تخلصا رائعا فالبطل الحقيقي في نظر الإنسان الجاهلي هو الذي يتحلى بالصفات النبيلة كالفروسية والكرم والتضحية والحلم وقت الغضب والبأس في الحروب .

ولو تتبعنا قصيدة لبيد المشهورة نجد أجزاءها قد جاءت وثيقة الصلة بعضها ببعض :

أقضي اللبانة لا أفرط ريبة   أو أن يلـوم بحاجـة لوامهـا

أو لم تكن تدرى نوار بأنني   وصّال عقد حبائل جذامها

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يعتلق بعض النفوس حمامها

ثم يقول :

بل أنت لا تدرين كم من ليلة   طلق لذيذ لهوها وندامها

قد بت سامرها وغاية تاجر   وافيت إذ رفعت وعزّ مدامها

وهنا نجد الشاعر بعد أن فرغ من وصف ناقته يفخر بانتصاراته ويعتز ببطولاته التي تطالعك من خلال كلماته لصاحبته نوار وهي إن كانت قد شغلت عنه بالرحلة والانتقال فهو مشغول عنها بأعماله وبطولاته فأيامه كلها سلسلة من البطولات والانتصارات :

ولقد حميت الحيّ تحمل شكتي   فرط وشاحي إذ غدوت لجامها

فعلوت مرتقبا علي ذي هبوة   حرج إلي أعلامهن قتامها

حتى إذا ألقت يدا في كافر   وأجن عورات الثغور ظلامها

رفعتها طرد النعام وشله   حتى إذا سخنت وخف عظامها

قلقت رحالتها وأسبل نحرها   وابتل من زبد الحميم حزامُها

ترقي وتطعن في العنان وتنتحي   ورد الحمامة إذ أجدّ حمامها

ولو تتبعنا بعض معاني الأبيات فسنجد الشاعر يصور حياته لمحبوبته علي أنها سلسلة من البطولات فهو في السلم يلهو مع أصحابه وفي وقت الحرب يدافع عن قومه فيمتطي فرسه بسرعة مرتديا ثياب الحرب ، متوشحا لجام فرسه ليظل علي أهبة الاستعداد ، وفرسه قوية نشيطة تطارد النعام فتسبقه ، وهي تعدو وكأنها تطعن بعنقها لجامها ، ثم إذا أطلقت ساقيها للريح كانت كالحمام العطش التي تسابق الريح بحثا عن الماء ، ثم يعود لبيد ليصور كرمه وكرم قومه *فيقول* :

وجـزور أيسـار دعـوت لحتفهـا   بمغـالق متشـابه أجسـامُها[1]

فالضيف والجار الجنيب كأنما   هبطا تبالة مخصبا أهضامها[2]

وتختلف المقدمات عند "عمرو بن كلثوم" فهي لم تسر علي نسق الفخر عند الشعراء الجاهليين حيث إنها اختفت أو كادت حيث استبدل الطلل بالخمر ، ثم بعد الغزل انتقل إلي الفخر مباشرة .

يقول في مطلع معلقته:[3]

ألا هبـي بصـحنك فاصـبحينا   ولا تبقـي خمـور الأنـدرينا[4]

ويعد المقدمة الخمرية التي بدأ بها يسوق لنا فهمه للحياة فهو يفخر بشجاعته وقوته وعدم خوفه حتى من الموت ، لأنه النهاية الحتمية لكل حيّ :

وإنـا سـوف تـدركنا المنايـا   مقـدرة لنـا ومقـدرينا

---

(١) جزور أيسار : أصحاب الميسر   المغالق : سهام الميسر

(٢) تبالة : وادي خصب   الهضيم : المطمئن من الأرض

(٣) شرح المعلقات السبع صـ٣٧١ وما بعدها

(٤) فاصبحينا : أي اسقينا خمر الصباح   الأندرين : قرية بالشام كثيرة الخمور

ثم يلي ذلك المقطع الغزلي الذي يصف فيه صاحبته :

قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

بيوم كريهة ضربا وطعنا أقر به مواليك العيونا

قفي نسألك هل أحدثت وصلا لوشك البين أو خنت الأمينا

ولو استبعدنا المقطع الغزلي ، وتجاوزناه إلي الفخر فسنري أن المعلقة تسيطر عليها عاطفة واحدة . ففخر الشاعر بنفسه وبقومه من الأشياء التي يمجدها البدوى ؛ لأنها تحمل كل معاني البطولة والفحولة والاستبسال والدفاع عن النفس وتمجيد معاني الفداء والتضحية والإيثار ، وقد بدأ الشاعر مقطع الفخر بتخلص رائع من مقدمات قصيدة الفخر :

وإن غدا وإن اليوم رهن وبعد غد بما لا تعلمينا

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا وتصدرهن حمرا قدروينا[1]

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمى المحجرينا[2]

والقصيدة في مجملها تكشف عن الشخصية العربية الأصيلة بما تحمله من معاني السيادة والشرف والنضال من أجل الحياة ، والقصيدة استطاعت من خلال

(١) تصدرهن : نردهن

(٢) المحجرين : الذين ألجئوا إلي الضيق

البناء الذي سارت عليه أن تحقق الوحدة الشعورية ، ومن هنا كانت هذه القصيدة خير مثال لروح العصر الجاهلي وقيمه وأخلاقه ،

وقد انحسرت بنية قصيدة الفخر حتى لم يبق للمقدمات أثر ، بل وجدنا بعض الشعراء يدخلون مباشرة علي الفخر مثلما فعل "عمرو بن الإطنابة" الذي بدأ قصيدته بالفخر بقومه فيقول :

إني من القوم الذين إذا انتدوا   بدأوا بحق الله ثم النائل[1]

المانعين من الخناجار اتهم   والحاشدين علي طعام النازل

والضاربين الكبش يبرق بيضه   ضرب المجهجه عن حياض الآبل

والقاتلين لدي الوغي أقرانهم   إن المنية من وراء الوائل

والقائلين فلا يعاب كلامهم   يوم المقامة بالقضاء الفاصل

ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا   ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل

وهذه القطعة تمثل موقفا إنسانياً واحدا ، وتعبر عن تجربة شعورية واحدة .

وفي الفخر أيضاً *يقول عنترة بن شداد*[2]

خلقت من الحديد أشد قلبا   وقد بلي الحديد وما بليتُ

وفي الحرب العوان ولدت طفلا   ومن لبن المعامع قد سقيتُ

ولي بيت علا فلك الثريا   تخرّ لعظم هيبته البيوتُ

(١) النائل : العطايا .

(٢) لما خرج عنترة غاضبا من قومه لعدم اعترافهم بحريته ونسبة فيهم وأقام في بني عامر ، انتهز الأعداء الفرصة وأغاروا علي ديار قومه ، وكادت قبيلته تهزم لولا استنجادها به ، فأسرع لنجدتهم ..

والمتتبع للقصائد التي استشهدنا بها يري أن موضوع الفخر يدخل ضمن الوحدة العامة لبناء القصيدة الجاهلية كما يري أيضاً أن طبيعة غرض الفخر تفرض علي الشاعر اقتطاع أجزاء من المقدمات التي لم يعد في حاجة إليها وبالتالي في كثير من الأحيان صارت القصيدة الفخريّة قاصرة علي الفخر وحده دون مقدمات .

(ع) الهجـــاء

سارت القصيدة في الهجاء علي نهج قصيدة المديح باتخاذها المقدمات المألوفة ، وإن كانت المقدمات مختصرة عن غرض المديح ؛ لأن حالة الغضب التي فيها الشاعر لم تدع له مجالا لهذه المقدمات .

ولم يقف شاعر عند هذه المقدمات في غرض الهجاء سوي "زهير بن أبي سلمي" في همزيته التي يهجو فيها "آل حصن" والتي مطلعها :[1]

عفا من آل فاطمة الجواءُ فالقوادم فالجساء

فيمن فالقوادم فالحساء

والمتتبع لهذه القصيدة في ديوانه يجدها تبدأ بالوقوف علي الأطلال ، ثم الغزل، ثم وصف الناقة والرحلة في الصحراء ، وقد أضاف زهير لوحة أخري في هذه المقدمة وهي لوحة الخمر ، ثم انتقل إلي غرضه الأساسي وهو الهجاء .

يقول زهير بن أبي سلمي :

---

(١) ديوانه صـــ٩

وما أدري وسوف إخال أدري ... أقــوم آل حصــن أم نســاءُ

فــإن قــالوا النســاء مخبآت ... فحــق لكــل محصــنة هــداءُ

وإمــا أن يقــول بــني مصــاد ... إلــيكم إننــا قــوم بــراءُ

وإمــا أن يقولــوا قــد وفينــا ... بــذمتنا فعادتنــا الوفــاءُ

وإمــا أن يقولــوا قــد أبينــا ... فشــر مــواطن الحسب الإبــاء

وإن الحــق مقطعــه ثــلاث ... يمــين أونفــار أوجــلاءُ[1]

ويستمر "زهير" في هجائه :

فمهــلا آل عبــدالله عــدوا ... مخــازي لا يــدب لهــا الضــراءُ

أرونــا ســنة لا عيــب فيهــا ... يســوي بيننــا فيهــا الســواءُ

ورغم أن المقدمة طويلة نسبيا ، فقد استغرقت نحوا من أربعة وثلاثين بيتا إلا أننا وجدناها تتصل بالمعني الذي ساقه في هجائه . فالأطلال قد عفت من أهلها ، وصارت خرابا . ورغم ذلك لم يستسلم الشاعر لظروف الطبيعة من رياح وأمطار ، بل جعل هذه الأمطار سببا في دبيب الحياة من جديد . ثم يصف الناقة والرحلة في الصحراء ثم يصل إلي الغرض من القصيدة .

ومن هنا كان الهجاء دفاعا عن النفس وعن القبيلة فهو شعور إنساني يصور مقاومة الظلم ، وقد سار "الأعشى" في بعض قصائده الهجائية علي وتيرة شعر "زهير" فقدعنى بتلك المقدمات ، وخير مثال علي ذلك معلقته المشهورة :[2]

١- ثلاث : أي ثلاث خصال ... النفار : التنافر

١- ديوان الأعشى صــ٩١

ودع هريرة إن الركب مرتحلُ وهل تطيق وداعا أيها الرجلُ

وتستغرق المقدمات في هذه المعلقة نحوا من أربعة وأربعين بيتا ينتقل بعدها إلي الهجاء الذي يبدؤه بقوله :

أبلغ يزيد بن شيبان مألكة أبا ثبيت أما تنفك تأتكل ؟[1]

ويتابع هجاءه المقذع في نحو من عشرين بيتا كلها تهكم وسخرية ووعيد ثم يفتخر بقومه في آخر .... *القصيدة بقوله* :

قد تخضب العير في مكنون فائله وقد يشيط علي أرماحنا البطل[2]

وعلي نمط الهجاء المقذع أشعار الحطيئة فهو يدخل إلي غرضه مباشرة دون مقدمات ، ومن هذا القبيل هجاء الحطيئة لأمه :

جزاك الله شرا من عجوز ولقاك العقوق من البنينا

تنحي فاجلسي مني بعيدا أراح الله منك العالمينا

حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

وكما كان للشاعر عند الفخر والمديح هيئة مشرقة جذابة كان عند الهجاء في هيئة قاتمة مفزعة . ولنأخذ مثالا علي هيئة الشاعر عند الهجاء : ذهب لبيد وهو صبى مع أخواله إلي الملك النعمان ، وقرب الوصول تركوا لبيدا مع الإبل خارج المدينة ، وعندما دخلوا علي الملك وجدوا عنده رجلا من قبيلتهم أوغر صدر الملك عليهم فاستقبلهم استقبالا سيئا وأمرهم أن يرجعوا إليه في اليوم التالي ، وعندما

١- مألكة : رسالة تأتكل : تحتك من الغيظ

٢- العير : الحمر الوحشية فائل : عرق في الفخذ

رجعوا إلي لبيد تعجب من أمرهم ،فسألهم فعلم بما فعل الرجل معهم ، فقال لهم : خذوني معكم إلي الملك ، وفي اليوم التالي دخل معهم ، فقال الملك : من المتحدث اليوم ؟ وكان نفس الرجل الذي أوغر صدرا الملك علي أخوال لبيد يأكل معه ، فأشاروا إلي الصبي ، فاستصغر الملك شأنهم ثم أمر لبيدا أن يتكلم ، فقال قصيدة بدأها بالهجاء المقذع :

أرجو أبيت اللعن لا تأكل معه ....

فاشمأزت نفس الملك من الأكل مع الرجل وطرده من مجلسه ، فما هيئة لبيد عندما قال قصيدته ؟

كان لبيد يلبس ثوبا مقلوبا الصدر مكان الظهر ، وقد صبغ نصف وجهه باللون الأحمر ، وصنع ذؤابة من شعره رفعها كقرن الشيطان ، وكان ينتعل في قدمه اليسرى فرده خف ، وهكذا كان يصنع الشاعر عند الهجاء ، فهو يتناول العدو بسلاح الشعر ، وأسلحة الحرب دفاعا عن القبيلة ، وحرصا علي سلامتها .

(د) الرثـــــاء

تخلصت قصيدة الرثاء في الأغلب الأعمّ من المقدمات المألوفة ؛ لأن الرثاء في حقيقته تعبير عن اللوعة والحسرة والحزن ، بل رأي الكثير من النقاد ومنهم "ابن رشيق" أن من العيب أن تبدأ قصيدة الرثاء بتلك المقدمات ، ومع ذلك فقصائد الرثاء التي بدئت بالغزل قليلة ، والمقدمة لا تتجاوز الأبيات القليلة ، وهي في كل

الأحوال يمهد بها الشاعر لذكرا الميت ، وغالبا ما تشتمل أبيات المقدمة علي جو يسوده الحزن والألم والشكوى والتفكير والحكمة .

معني ذلك أن الشاعر حين يبدأ بالمقدمة يتخذها وسيلة أو جسرا للوصول إلي غرضه ، فهو لا يهتم لفراق صاحبته ، وإنما ذكر فراق الحبيبة وسيلة إلي ذكر من فجع فيهم من قومه .

يقول لبيد في رثاء أخيه إربد :[1]

طرب الفؤاد وليته لم يطرب   وعناه ذكرى خلة لم تصقب[2]

سفها ولو أنى أطعت عواذلي   فيما يشرن به بسفح المذنب

لزجرت قلبا لا يريع لزاجر   إن الغوى إذا نهى لم يعتب

ثم ينتقل بعد ذلك سريعا إلي الرثاء :-

فتعز عن هذا وقل في غيره   واذكر شمائل من أخيك المنجب

يا أريد الخير الكريم جدوده   أفردتنى أمشي بقرن أعضب

إن الرزيئة لا رزيئة مثلها   فقدان كل أخ كضوء الكوكب

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الأجرب

(١) ديوانه صـ١٦
(٢) خلة : صديقة   لم تصقب : لم تجاوز ولم تقترب

وليست المقدمات بظاهرة عامة عند شعراء هذا العصر بل ليست بظاهرة عامة عند الشاعر نفسه فأبوذؤيب الهذلي في رثاء "تشيبة بن الحرث" يطيل في مقدمة قصيدته التي مطلعها :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها[1]

وفي رثاء أولاده الخمسة الذين هلكوا واحدا واحدا بسبب الطاعون الذي أصابهم في مصر عام ثمانية عشر لهجرة. فالمقدمات في قصيدته الثانية طويلة تشمل القصيدة كلها ، و هي قصيدة تتميز بروعة معانيها و عمقها و إنسانيتها و صدق عاطفتها . ففي الجزء الأول من القصيدة يصور لنا الشاعر هول الفاجعة و ما صار علية حاله بعد فقد أولاده فيقول :

أمن المنون و ريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذاك المضجع

فأجبتها أن ما لجسمي أنه أودى بني من البلاء فودعوا

أودي بني وأعقبوا لي حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

ولقد أري أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفجع

(١) غيارها : غيابها ، والمعنى هل الدهر إلا ليلة تذهب ويوم يجئ .

سبقوا هوای وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع[1]

فغبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أني لاحق مستتبع[2]

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم فإذا المنيه أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فحواره مع أميمة كان تعبير عن الانفعالات المكبوتة في صدره ، فأميمه تلومه علي نحول جسمه وشحوبه متهمة إياه بأن سبب ذلك تقتيره علي نفسه ، وخشونة مضجعه ، متجاهلة حقيقة الأمر ، وهي هلاك أولاده الخمسة ، وفراقه لهم ورغم أنه يري أن البكاء حمق وطيش إلا أنه يعود فيقول : إن الموت يعود الإنسان البكاء ، ولا غرابه في تناقضه ؛ لأن الحدث جلل ، فالموت أقوي من كل شئ ، ثم يعطينا في النهاية صورة بشعة للموت ، فهو كالوحش الكاسر الذي إذا أنقض علي فريسته لا يستطيع أحد أن ينقذها منه .

ويتوالي تصوير حزنه وآلامه ، وسوء حالة في باقي القصيدة ، والقصيدة طويلة نوعا ما ولكنها غاية في الروعة ، فرغم تعدد أجزائها ، نجدها متماسكة يسودها جو من الانفعال الحزين .

ولو تأملنا لوحة (الحمار وأتانه) في القصيدة لن نجدها منفصلة عن غرض القصيدة ، فقد صور لنا الأتن في فصل الشتاء ، وهي نشوى فرحة لوفرة الكلأ والماء ثم صور لنا معاناتها في فصل الصيف ، وقد جف كل شئ في الصحراء حتى إذا

---

(١) هوى : هواى أي ماتوا قبلي — أعنقوا : أسرعوا — تخرموا : أخذوا واحدا واحدا

(٢) غبرت : بقيت — ناصب : ذو نصب وتعب



عثرت علي الماء ودخلها شئ من الفرح صرعتها أسهم الصائدين . وهكذا يموت الحيوان في قصيدة الرثاء وتكتب له النجاة في قصائد المديح والفخر.

وإذا تتبعنا رثاء الخنساء لأخيها صخر نجد أنها لا تفتتح مراثيها بتلك المقدمات ؛ لصدق عاطفتها ، وعمق أحاسيسها ، فقصائدها في رثاء أخيها تمتلئ بالحزن واللوعة *تقول* :

يـذكرني طلـوع الشـمس	وأذكـره لكـل غـروب شمـس صـــخرا
ولـولا كثـرة البـاكين حـولي	علـي إخـوانهم لقتلـت نفسـي

وترثي أخاها صخرا في قصيدة أخري فتقول :

أعـيني جـودا ولا تجمـدا	ألا تبكيـان لصـخر النـدي ؟
ألا تبكيـان الجرئ الجميـل	ألا تبكيـان الفتـى السـيدا ؟
طويل النجاد ، رفيع العماد	سـاد عشـيرته أمـردا[1]
إذا القـوم مـدوا بأيـديهم	إلـي المجـد مـد إليـه يـدا
فنـال الـذي فـوق أيـديهم	مـن المجـد ثـم مضـى مصـعدا
تري الحمد يهوى إلي بيتـه	يري أفضل الكسب أن يحمدا[2]

(١) النجاد : حمائل السيف — أمرد : لم تنبت لحيته

(٢) الحمد : الثناء — يهود : يسرع

ولقد استطاعت الخنساء في مقطعاتها الرثائية أن تحقق الوحدة العضوية بمفهومها الحديث ، وليست هي وحدها التي نهجت هذا النهج وإنما تجد الكثرة الكاثرة من قصائد الرثاء تنحو هذا المنحي ، والأمثلة علي ذلك كثيرة .

معني ذلك أن قصيدة الرثاء في أغلبها لم تسلك في بنيتها المسلك الذي رأيناه في قصيدة المديح لأن الشاعر في قصيدة المديح كان يهتم بالمقدمات إظهارا لما تضفيه الطبيعة علي الإنسان العربي من صلابة وإباء وشمم ، فإذا كانت ظروف الحياة قاسية فلن يتحمل العيش فيها إلا الإنسان القوى الصلب الذي يستطيع أن يتغلب علي كل صعاب الحياة ، ولكن في قصيدة الرثاء نجد المقدمات تكاد تختفي تماما أو اختفت تماما كما في شعر الخنساء وفي شعر فاطمة بنت الأحجم الخزاعية وغيرهما.

هـ) الوصف

يعد الوصف جزءا لا يتجزأ من موضوعات القصيدة في العصر الجاهلي ، فالشاعر الجاهلي نظر إلي الطبيعة ووصف كل ما وقعت عليه عيناه من نباتات وحيوانات وديار وأطلال وأمطار وسماء ونجوم ، فنراه يسجل كل شئ يشاهده ، وتعد لوحة الوصف من الأغراض الرئيسة في قصيدة المديح والفخر ، تختفي في قصائد الرثاء وتنحسر في قصائد الهجاء ، ومع ذلك فهناك قصائد كاملة أفردها الشعراء للوصف مثل قصيدة "امرئ القيس" في وصف المطر :

ديمـة هطـلاء فيهـا وطـف ... طبـق الأرض تحـرى وتـدر[1]

تخـرج الـودق إذا مـا أشـحذت ... وتواريـه إذا مـا تشـتكر

والشاعر يصور المطر وهو ينهمر حتى يعم الأرض من حوله والقصيدة في ديوانه ص ١٤٦ وبعدنا عن اللغة لا يجعلنا نتهم ألفاظ القصيدة بالصعوبة والتعقيد.

وديوان الحماسة لأبي تمام تكثر فيه المقطوعات الخالية من المقدمات ، والتي تنفرد بموضوعات الوصف ، وقد شمل الوصف بعض القصائد الطوال مثل معلقة امرئ القيس فهو قد بدأها بالوقوف علي الأطلال ، ثم يتحدث عن رحيل الأهل ، ويصف الأماكن التي رحلوا عنها ، ويبرز الخراب الذي غلب عليها ، فهو يسترجع الماضي في أسلوب قصصي جذاب :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح والمقراة لم يعف رسمها ... لما نسجتها من جنوب وشمال

تـري بعـر الآرام في عرصـاتها ... وقيعانهـا كأنـه حـب فلفـل

كـأني غـداة الـبين حـين تحملـوا ... لدي سمرات الحى ناقف حنظل

وقوفـا بهـا صحبى علي مطيهم ... يقولـون لا تهلـك أسـي وتجمـل

والملاحظ في هذه المقدمة أن الشاعر اتخذ من الخراب ما يجدد به الحياة . فالأماكن التي هجرها أصحابها قد قامت فيها حياة أخري هي حياة هذا الحيوان من الظباء ، ويوضح أن عوامل الفناء لم تقدر علي إخفاء ديار أحبته . ...

---

(١) الوطف : الدنو من الأرض ... طبق الأرض : تعمها
تـدر : يكثر مالها ... تحري : تعمد إلي الأمكنة وتبيت فيها

وقد تنوعت ذكريات الشاعر في معلقته فهو يذكر "أم الحويرث" و "أم الرباب" و "عنيزة" ابنة عمه ، ومن كان معها من "العذاري" كما يذكر غيرهن من النساء . وقد وصف الشاعر في أبيات الغزل جمال صاحبته فوصف شعرها ، وعينيها ، وجيدها ، وخصرها ، ويديها ورائحتها ، وإن كان الوصف في الشعر الجاهلي حسيا إلا أن الشاعر جمع بين الصفات الحسية والروحية يقول :

تضيءُ الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتلِ

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضلِ

ثم يصف الشاعر توتره وضيقه فيصوره بطول الليل وظلمته مرة ، وفي موج البحر مرة ، وفي البعير الذي أردف أعجازا وناء بكلكله مرة ثالثة :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكلِ

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

ثم ينتقل الشاعر إلي وصف حصانه ، فيصفه بطائفة من التشبيهات ، وكأنه بهذه الصفات الأسطورية ينتصر لنفسه :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ

مكر ، مفر ، مقبل ، مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من علِ

له أيطلاظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفلِ

ثم ينتقل إلي وصف الغيث وكأنه في تصويره للطبيعة الثائرة يصور توتره الذي يعيشه ، ..

والمتتبع لهذه القصيدة يجد أن الشاعر ما أنشأها إلا لغرض الوصف ، والشعر الجاهلي به الكثير من قصائد الوصف ومن التصوير الرمزي أو الإيحائي ما يمثل انتصار الإنسان علي كل مصاعب الحياة .

من هنا نري أن الوصف من الأغراض الرئيسة في القصيدة الجاهلية ، فقد تكون القصيدة كلها من أجل الوصف مثل قصيدة امرئ القيس في وصف المطر ، وقد يأتي الوصف ضمن أغراض القصيدة ، وقد يشمل كل أغراض القصيدة كمعلقة امرئ القيس ، وقد تأتي قصيدة الوصف بلا مقدمات .

(و) الغزل

لقي الغزل عناية كبيرة عند الشعراء الجاهليين ؛ لذلك جعلوا المرأة محور حديثهم ، فذكروا محاسنها وصفاتها وسحرها ، وجعلوها أول موضوع في قصائدهم ، وإن سبقها ذكر الأطلال ، ومع ذلك فهناك غزلية انفردت بذاتها ، ولم يكن افتتاح القصيدة بالغزل ، أو بالوقوف علي الأطلال عفويا ، وإنما هو التزام شعري يأخذ أشكالا معينة عند كل غرض ، ففي المديح رأينا المقدمات تأخذ شكلا غير الأمور التي يتحدث عنها في الهجاء ، وأيضاً غير الأمور التي يتحدث عنها في الرثاء وهكذا في سائر الأغراض ، وكذلك بيّنا أن المقدمات كاملة في قصيدة المديح ، تنحسر عند

الفخر أو الهجاء وتتلاشي في الرثاء ، كما وضحنا من قبل ، وقد انفردت بعض المقطعات القصيرة بالغزل وحده دون أي غرض آخر

كقول الشاعر:

وقفت لليلي بالملا بعد حقبة ... بمنزلة فانهلت العين تدمعُ

وأتبع ليلي حيث سارت وودعت ... وما الناس إلا آلف ومودعُ

كأن زماما في الفؤاد معلقا ... تقود به حيث استمرت فأتبعُ

وكقول آخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى ... بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى

وإن أك عن ليلي سلوت فإنما ... تسليت عن يأس ولم أسل عن صبرى

وإن يك عن ليلي غنى وتجلد ... فرب غنى نفس قريب من الفقر

والمقطعتان السابقتان انفردتا بالغزل ، وهما يمثلان موقفا إنسانياً لكل شاعر منهما ، ولنتأمل غزل الأعشى في صاحبته هريرة :

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعا أيها الرجلُ

غراء فرعاد مصقول عوارضها ... تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحلُ[1]

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة لا ريث ولا عجلُ

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرق زجلُ[2]

---

(١) غراء : بيضاء — فرعاء : طويلة الشعر — مصقول : مجلو ومنمق
عوارضها : أسنانها — الوجى : من رقت قدمه من كثرة المشي .
(٢) عشرق : شجرة تحدث صوتا مع الريح — زجل : له صوت

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتلُ [1]

يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلي جاراتها الكسلُ [2]

إذا تقوم يضوع المسك أصورة والزنبق الورد من أردانها شملُ [3]

ومن هذا الدرب غزل امرئ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

وهكذا رأينا أن المقدمات الغزلية تمتزج بروح البطولة والقوة ، وهي تبين أهمية وجود المرأة في حياة العربى ، فهي موطن سعادته ، ومركز تفكيره ، ومخزون ذكرياته ، وهي النسمة التى تلطف عليه صعاب الحياة ، وقوة الموت ، وقلنا بأن هذه المقدمات طالت أحياناً ، وألغيت أحياناً أخري حسب الغرض العام للقصيدة ، وقلنا بأن هذه المقدمات لم تكن منفصلة عن القصيدة ، بل كانت انتقالا رائعاً نحو الغرض من إنشاء قصيدته .

وعموماً فمعظم الأدب الجاهلي عندما يقترب من المرأة يقترب منها جسداً فيبدأ بالشعر الفاحم ثم ينتقل إلي العينين ثم الجيد ثم الصدر النافر والخصر الدقيق والعجز الثقيل حتى يصل إلي الساقين الممتلئتين كوصف الأعشى لهريرة في معلقته ، وامرئ القيس لمحبوبته ،

---

١ - تختتل : تتسمع في خفية.

٢ - يصرعها : يقتلها.

٣ - يضوع : يفوح أصورة : رائحة المسك شمل : يشمل ما حوله.

ومع ذلك كان هناك من الشعراء من عرفوا العفة ، والإخلاص في الحب مثل المرقش الأكبر وحبيبته اسماء ، والمرقش الأصغر وحبيبته فاطمة والمخبل العبدي وحبيبته ميلاء ، وعبدالله بن العجلان وهند ، وقيس بن الحدادية ونعم وغيرهم وغيرهن . وقد وضع هؤلاء الشعراء المرأة في منزلة عالية ، فهي جمال خالص ، ملائكية خالصة حتى لتوشك أن تكون روح الحياة وجوهرها .

يقول المرقش الأكبر :-

قل لأسماء أنجزى الميعادا — وانظرى أن تزودى منك زادا

أينما كنت أو حللت بأرض — أو بلاد أحييت تلك البلادا

إن تكونى تركت ربعك بالشام — وجاورت حميرا ومرادا

فارتجى أن أكون منك قريبا — واسألى القاصدين والورّادا

وإذا ما سمعت من نحو أرض — بمحب قدمات أو قيل كادا

فاعلمى غير علم شك بأنى — ذاك وابكى لمصفد أن يقادا

ويقول عروة بن حزام :-

على كبدى من حب عفراء قرحة — وعيناى من وجد بها تكفان

فعفراء أرجى الناس عندى مودة — وعفراء عنى المعرض المتوانى

كأن قطاة علقت بجناحها — علي كبدى من شدة الخفقان

جعلت لعراف اليمامة حكمة — وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا : نعم تشفى من الداء كله   وقاما مع العواد يبتدران

فما تركا من رقية يعلمانها   ولا سلوة إلا وقد سليانى

وقالا : شفاك الله والله ما لنا   بما ضمنت منك الضلوع يدان

وإنى لأهوى الحشر إذ قيل أنني   وعفراء يوم الحشر ملتقيان

ومع ما في القصيدتين من سمو وعفة وإخلاص للمحبوب ، فقد تحققت فيهما الوحدة الشعورية وبالتالي خلت من كل أغراض القصيدة الجاهلية وما اتهمت به من تفكك ، وبذلك صارت قصيدة الغزل تجول في غرض واحد وهو الغزل.



الفصل الثانى :

النثـــر الجاهلـــى

اتفق القدماء علي أنه كان للعرب الجاهليين نثر فنى ، وأن هذا النثر الفنى كان أكثر وأغزر من الشعر ، ولكن الرواة لم يحفظوا منه سوى النذر اليسير ، ومع ذلك اري أ/ن الشعر أسبق من النثر لأن الحادى في الصحراء عندما كان يركب بعيره أو يسير خلفه يرتجل بعض الأبيات التي يتغنى بها علي إيقاع حركة البعير وعلي ضرب خفه بالأرض ، ..

ومما لا شك فيه أن العرب الجاهليين كان لهم نثر منذ عصور قديمة ، ولكنه لم يرتقي إلي مستوي النثر الفنى ، فالنثر إذن متأخر العهد بالقياس إلي الشعر ، وحسبك أن تنظر إلي حضارة مكة والطائف والمدينة ، فقد كان أهلها يتخذون الكتابة في أغراضهم التجارية والاقتصادية كما كانوا يتصلون باليهود والنصارى والفرس ومملكة الحيرة ومملكة الغساسنة ، وكانت هذه الاتصالات تدعوهم إلي التفكير والروّية ، كما كان لهم ألوان أخرى من العلوم كعلم الفلك والطب وغير ذلك ويكفينا هذا ليكون لهم نثر.

ولا نستطيع أن ننسى ما فعله الرسول ﷺ مع أسرى بدر لتعليمهم القراءة والكتابة للمسلمين ، معنى هذا أن النثر كان موجودا ، والأمثلة علي ذلك كثيرة ،منهاً الخطب التى كانت تقال عند كسرى أو في سوق عكاظ أو في عقود الزواج ، أو عند تعبئة الجيش للحرب، وظاهر الأمر أنه كان للخطب سنن خطابية ، وللمحاورين

سنن في الحوار ، وظاهر الأمر أيضاً أنه كان لهم سنن في النثر نلمحها في خطب قس بن ساعدة ، وسهيل بن عمرو وغيرهما ، كما نلمحها في أحاديث النبي ﷺ وفي أحاديث الخطباء من الصحابة ، فما هي الخطبة ؟ وما أجزاؤها ؟

إنا تأملنا الخطبة نجد أنها فن مخاطبة الجماهير للإفهام والإقناع والاستمالة، وأجزاؤها المقدمة ، فالموضوع ، فالخاتمة ، وإذا تساءلنا كيف تحقق أهدافها ؟

وللإجابة بإيجاز : من خلال وضوح الألفاظ والعبارات واستخدام أدوات التوكيد ، والتنويع بين الإنشاء والخبر ، وبالموسيقا النابعة من السجع والجناس ، وبالتصوير وبجودة الإلقاء ، وتحسين الصوت ، ولطف الإشارة ، ومن أهم فنون النثر الجاهلي :

(أ) الخطابة

وهي فن مخاطبة الجماهير للإقناع والامتاع وأجزاء الخطبة هي : المقدمة والموضوع والخاتمة وأهم خصائصها :-

١- سهولة الألفاظ ووضوح العبارة .

٢- قصر الفقرات .

٣- تنوع الأساليب بين الخبر والإنشاء .

٤- الميل إلي الإطناب بالتكرار والتوكيد والتفصيل والتوضيح .

٥- الإقناع بالحجج والبراهين من خلال الأدلة الخطابية والواقعية .

٦- الإمتاع بروعة التصوير وجمال التعبير.

٧- يغلب عليها طابع الرد للحكم والخواطر المتناثرة فيها.

- *وقد ساعد علي رقى الخطابة في العصر الجاهلي ما يلي :-*

١- حرية الرأى في إبداء القول.

٢- الفصاحة والقدرة علي التعبير.

٣- كثرة الدواعي والمناسبات كالحروب والسفارة والإصلاح والزواج ولا نستطيع أن ننسى خطبة أبى طالب عندما تقدم لخطبة السيدة خديجة رضى الله عنها - للنبي ﷺ.

ومن أمثلة الخطابة خطبة "قس بن ساعدة" التي قال فيها :

"أيها الناس. اسمعوا، وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ يا معشر إياد : أين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا، وأطول آجالا؟ طحنهم الدهر بكلكله، ومزقهم بتطاوله".

وقد كان لكل خطبة مكانها المناسب، وزمانها المحدد، ودورها في نقل خبرة الآباء للأبناء والحكماء لجماهير الناس، وخطبة "قس" ألقيت هي وغيرها في سوق عكاظ الذى كان يعقد كل عام مع بداية هلال ذى القعدة، ويستمر عشرين يوما

ينشد فيه الشعراء شعرهم ، ويلقي فيه الخطباء خطبهم ، ويحكّمون في شعرهم أو نثرهم كبار شعرائهم ، وكان النابغة الذبياني وغيره يفصلون في تلك القضايا ، ويشهدون للمتفوق في تلك الفنون ،

وقد كثر في الخطبة السجع والجناس والازدواج والطباق والصور الجمالية ، وتلك سمات الخطبة في ذلك العصر.

(ب) الوصية

وهى قول صادر من مجرب خبير بالحياة يقوله لمن هو دونه في التجربة ولها خصائص منها :

١- سهولة اللفظ .	٢- الميل إلي السجع .
٣- قصر الفقرات .	٤- تشتمل علي الحكم .

مثال للوصية:

وصية أم لابنتها لأمامة بنت الحارث تقول فيها :"أى بنية ، إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أي بنية ، إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت إلي وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا .

أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة . وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه علي قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة . وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس لما له ، والإرعاء علي حشمه وعياله ؛ وملاك الأمر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا ، ولا تفشين له سرا ، فإنك إن خالفت أمره ، أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتما ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً" .

والوصية كما تبدو لنا تبين دور المرأة في الحياة الاجتماعية ، فهي خبيرة مجربة تقدم نصحها لابنتها بطريقة لبقة ، وبأسلوب رقيق ،

وكما يقول الإمام الشافعي : "من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه" .

وفي الوصية التزمت أمامه بالسجع والازدواج والطباق والجمل القصار، ونوعت بين الأساليب الخبرية والإنشائية فبالتالي نفذت وصيتها إلي قلب ابنتها.

(ج) الأمثال

وهي قول يوجز سائر علي الألسنة له مورد ومضرب قيل في حادثة حقيقية أو خيالية **وأهم كتب الأمثال :**

١- مجمع الأمثال للميدانى .

٢- المستقصى للزمحشرى .

٣- جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى .

- **وتتميز الأمثال بـــ :**

١- إيجاز اللفظ .

٢- قوة العبارة .

٣- دقة التشبيه .

٤- سلامة الفكرة .

- **والأمثال تعد "صوت الشعب" للأسباب التالية :-**

١- ارتباطها بالبيئة وما فيها من حرب وسلم .

٢- تعبيرها عن صفات العربى وأخلاقه وعاداته .

٣- تعبيرها عن طرق تفكيرهم ، ودقة ملاحظتهم ؛ لذلك كانت الأمثال تعبيرا عن البيئة وما يحدث فيها من تغير وتطور. ومورد المثل هو الحالة المشابهة للحادثة التي قيل فيها المثل لأول مرة ، ومن أمثلة ذلك :

(١) كأن علي رءوسهم الطير

مورده : كان العرب يخرجون جماعات لصيد الطيور، فإذا اختبئوا لها تحت الأشجار التزموا الصمت والحذر وكأن على رءوسهم الطير.

مضربه : يقال لكل جماعة من الناس تجلس في سكون وصمت ؛ ولذلك قال البلاغيون : كل مثل استعارة تمثيلية إلا ما ليس له مورد فهو تشبيه .

- **وقد وضحت ملامح البيئة في المثال السابق لما يلي :-**

١- كثرة أنواع الطيور في البيئة الصحراوية .

٢- مهارة العرب في الصيد .

٣- كثرة الأشجار في البيئة العربية .

٤- خروجهم في جماعات للصيد.

(٢) رجع بخفي حنين

مورده : ركب أعرابي ناقته وذهب إلي السوق لشراء حذاء من إسكا في اسمه "حنين" فساومه الأعرابي ، وفي النهاية لم يشتر الحذاء ، فأخذ حنين فرده من الخف وألقاها في طريق عودة الرجل الذى قال حين رآها : ما أشبه هذه بخفي حنين ، لو كانت الثانية معها لأخذتها وكان حنين قد وضع الثانية بعدها بمسافة فلما رآها الأعرابي ترك ناقته وعاد ليأخذ الفردة

الأولي ، فسرق حنين ناقته وهرب بها ، فعاد الأعرابي بالخفين ، ولما سأله قومه : بم رجعت ؟ قال : رجعت بخفي حنين ، مضرب المثل :

يقال في موقف من يرجع بالخيبة والفشل .

- *وقد وضحت ملامح البيئة في المثال السابق وهي :-*

١- كثرة المساومات في البيع والشراء .

٢- جشع التجار واستغلالهم .

٣- معرفة صناعة الأحذية .

ورغم ما في هذا المثل من أساليب خسيسة لإيذاء الناس ، إلا أنه صار مضربا لكل من لا يحقق النجاح رغم تباعد معني المثل عن هذا الأمر.

(٣) جزاء سنمار

مورده : استعان النعمان بسنمار المهندس الرومى ليبني له قصرا فريدا ، فلما أتمه له ألقي به الملك من أعلي القصر حتى لا يبني قصرا مثله لغيره .

مضربه : يقال لمقابلة الإحسان بالإساءة .

- *وقد ساهم المثل في توضيح ملامح البيئة العربية في ذلك العصر وهي :-*

١- تشبه الملوك العرب بالأعاجم في بناء القصور.

٢- أنانية الملوك وأثرتهم .

٣- ميل بعض الملوك إلي الظلم والاستبداد .

وهذا يذكرنا بقول بلقيس في سورة النمل : "قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون" .

والشئ الملفت للنظر كيف يتسم الحاكم بالخسة والغدر ومقابلة الإحسان بالإساءة والبناء بالهدم ؟!!

(٤) خذ الرفيق قبل الطريق

مورد المثل :

سأل أب ابنه المسافر عمن سيصاحبه في رحلته ، فأجابه : لا أحد معللا ذلك بأنه سيسلك أوضح الطرق ، فقال أبوه : خذ الرفيق قبل الطريق .

مضرب المثل :

يقال لمن يريد السفر دون أن يستعين برفيق وقد أعجبني في هذا المثل إيجابية العربي ، ودور الآباء في نصح الأبناء ، لأن الجديد في حاجة إلي خبرة القديم .

- *وقد ظهرت ملامح البيئة في هذا المثل كالآتي :-*

١- ضرورة الإعداد للرحلة .

٢- نصح الآباء للأبناء .

٣- دور الأب في الحفاظ علي حياة ابنه .

٤- طول الطرق وكثرة أخطارها وكلنا يتذكر رحلة سلمان الفارسي من فارس إلي المدينة وكيف كاد له المسافرون معه في الرحلة ، وكيف سلبوا متاعه ، وباعوه عبدا ليهودى بالمدينة .

(٥) إنك لا تجنى من الشوك العنب

مورد المثل : لما رأى صبى أباه يغرس شجرا فأثمر عنبا ، ظن أن كل ما يغرس يثمر عنبا فغرس شجرة شوك وانتظر.

فقال له أبوه : إنك لا تجنى من الشوك العنب مضرب المثل : يقال لمن يرجوا المعروف في غير أهله .

- *وتظهر في المثل ملامح البيئة العربية وهي :-*

١- كثرة الشوك والعنب في بيئتهم .

٢- وجود من يقابل الإحسان بالإساءة .

٣- وجود من يفعل الشر وينتظر الخير.

(د) الحكم

وهي أقوال موجزة مشهورة صائبة الفكرة ، رائعة التعبير تتضمن معنى مسلما به يهدف إلي الخير والصواب .

- *أسباب انتشارها :*

١- اعتماد العربي علي التجربة .

٢- استخلاصه العظة من الحوادث التي تقع .

٣- نفاذ بصيرته ، وصفاء قلبه ، وتمكنه من اللغة قولا واستيعابا .

وتعد الحكم صوت العقل ؛

لأنها تنبع من الخبرة والتجربة وهذا يقتضي التأمل والتفكير والموازنة بين الأمور واستخلاص العبرة منها .

- *ولنتأمل بعض الحكم وما تتسم به من روعة التعبير :-*

١. "مصارع الرجال تحت بروق الطمع" والحكمة هنا دعوة إلي القناعة فعاقبة الطمع الهلاك .

٢. "أول الحزم المشورة" .

وهي دعوة إلي استشارة الآخرين للوصول إلي ضبط الأمور.

٣. "اترك الشر يتركك" .

وهي دعوة إلي البعد عن كل أسباب الشر كأصدقاء السوء .

٤. "رب ملوم لا ذنب له"

وهي دعوة إلي التحقق من الأمر قبل اتهام الأبرياء .

أهم نتائج الفترة الجاهلية

وقبل أن ننتقل إلي فترة جديدة من تاريخ الأدب كان لزاما علينا أن نحدد أهم نتائج الفترة السابقة من تاريخ الأدب الجاهلي شعره ونثره ، وهذه النتائج تكشف لنا أن الشعر "ديوان العرب" ؛ لأن فيه تتمثل الحياة الجاهلية بكل عاداتها وأعرافها وحمقها وطيشها وحكمتها ومثلها العليا ، بل ويصور لنا إحساس العربى وهو يجابه مشاكل حياته اليومية ، وكذلك يصور حياته الخاصة من حب وخصام ونزاع ووئام ، ولم يكن الشاعر الجاهلي أو الناثر الجاهلي ببعيدين عن معين الثقافة فقد كانا علي قمة المثقفين إذ عليهما أن يعرفا ما يحمد ، وما يعاب ، ويعيا التاريخ القبلي والحوادث وأيام العرب ، ولو نظرنا إلي شعر الأعشى مثلا أو شعر النابغة لعرفنا دور الثقافات التي كانت سائدة في عصريهما في إثراء الوجدان وفي تعميق نظرتهما إلي الأشياء ، وفي تميزهما برجاحة العقل ، وتأصيل كل معاني الكرم والوفاء والإخلاص .

وقد التزم شعراء هذه الفترة بقبيلتهم فهم يناصرون قومهم ويسخرون ألسنتهم للدفاع عنهم ، ويعملون جاهدين علي إصلاح ذات بينهم وإيثار العفو والصفح فيما بينهم فإذا انتهكت حرمات القبيلة ، وتطاول عليها متطاول هددوا وثاروا ونالوا حتى من كسرى نفسه ، ومعركة "ذى قار" ، ومقتل عمرو بن هند خير مثال علي ما نقول ، وبذلك نستطيع أن نقول : إن الشعر قد صور لنا حياة العربي بكل ما فيها من متناقضات ، وقد حفظ لنا التاريخ الأدبي الكثير من نصوص الشعر ، ولم يصل

النثر إلي هذه المنزلة لقلة ما وصل إلينا منه ، ولاختصاص الشعر بأبواب لم يطرقها النثر.

والناظر إلي الشعر الجاهلي لا يحق له أن يقيسه بمقاييس النقد الحديثة ، وإنما يجب أن ينظر إليه بعيون أصحابه وآذانهم ، ولن تكون مشاركتنا وفهمنا للاتجاهات الفكرية والعاطفية عند الشاعر الجاهلي إلا إذا أحسنا فهمه ، وتعاطفنا معه ، وبهذا نستطيع أن نقدر القيمة الكاملة للشعر الجاهلي ، بل ونستطيع أن نحقق أكبر قدر ممكن من المتعة والفائدة .

وعموما القصيدة الجاهلية تحققت فيها الوحدة المعنوية كما يقول الدكتور طه حسين ، وتحققت فيها وحدة الجو النفسي كما بيّن الكثير من النقاد ، وإذا نظرنا من زاوية الإبداع نجد هذا الشعر - كما يقول الدكتور سامي منير [1] "بناء شعريا من نوع مختلف ليس متهدما كما يخيل إلينا إذا نظرنا إليه بالنظرة الغربية بل له انسجامه الخاص الذي لا يمجه ذوقنا إذا أحسنا تفهمه ، والتعاطف معه" .

وإذا تأملنا الألفاظ التي استخدمها الشاعر الجاهلي في المقدمات الطللية مثل: عفت الديار ، درست الدمن ، أمحت الرسوم ، الحياة تفنى ، تحت جبر القضاء ، ظلم المنية ، خبط عشواء ، الموت قريب ، الدهر العاتي ، نجد أن الحياة الجاهلية ملأت عقل وقلب العربي ، ورغم تشاؤم المقدمات الطللية أو الرحلة في الصحراء القاحلة ، أو البكاء علي الأطلال ، أو حزنه لفراق الأحبة ، فهو يقبل علي الحياة ،

(١) ملامح وحدة القصيدة في الشعر العربي صـ١٣٣

وكأن ما يحدث من صعاب وآلام حافز له لاستكمال رحلة الحياة بجرأة أكيدة، ونشاط جديد، وعزم جديد، وقد بلورت أشعار "طرفة بن العبد" فلسفة العربي في الحياة فيقول :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة

وما تنفد الأيام والدهر ينفد

وهكذا أحس العربي في العصر الجاهلي بحتمية الموت، ورأى رأي العين ما يفعله القدر به، وكان إحساسه بذلك قويا، جعله يتحمل قسوة الحياة في صبر وجلد، فهم يؤمنون بهذه الحياة الدنيا ولا يؤمنون بغيرها فينفعلون بها، وبما يحدث فيها قبل أن تطويهم الأرض بسكنها الأبدى.

يقول الأسود بن يعفر مترجما ذلك :

فإذا النعيم وكل ما يلهى به

يوما يصير إلي بلى ونفادِ

الباب الثاني

عصر صدر الإسلام

الفصل الأول :

الشـــعر

يعتبر بعض الأدباء أن العصر الإسلامي شامل لعصر صدر الإسلام وعصر الدولة الأموية ، وذلك بسبب عدم وجود فرق شاسع بين شعراء هذين العصرين ، وقد أطلق النقاد علي الشعراء الذين عاشوا قبل الإسلام وبعده بالشعراء المخضرمين ، وعلي الذين ولدوا في الإسلام بشعراء العصر الإسلامي .

ومن الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت ، والخنساء وكعب بن زهير ، والحطيئة ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم ممن يطلق عليهم لفظ المخضرمين ، وقد سبق لنا الحديث عن القصيدة الجاهلية وقلنا بأنها في أغلبها تتكون من عدة أغراض تبدأ بالمقدمة الطللية أو الغزل أو وصف الخمر ، وقلنا كيف تغير مفهوم هذه المقدمات فاختصرت أحيانا ، وحذفت أحيانا أخري ، ونضيف إلي ذلك أن معظم ما قلناه في هذا الشأن ينطبق أيضاً علي الشعر في العصر الأموى فقد خلت قصائد الرثاء والغزل وشعر الأحزاب السياسية من المقدمات .

يقول حسان بن ثابت في رثاء أخيه "خبيب" :

يا عين جودى بدمع منك منسكبِ

وابكى حبيبا مع الغادين لم يؤبِ

صقرا توسط في الأنصار منصبه

حلو السجية محضا غير مؤتشبِ



قد هاج عينى علي علات عبرتها

إذ قيل قد نص عن جذع من الخشبِ

يأيها الراكب الغادى لطيته

أبلغ لديك وعيدا ليس بالكذبِ

بنى فكيهة إن الحرب قد لقحت

محلو بها الصاب إذ تمرى لمحتلب

فيها أسود بنى النجار يقدمهم

شهب الأسنة في معضوضب لجب

والقصيدة تنعى "خبيبا" وتتوعد بنى فكيهة بالحرب التي لن تبقي ولا تذر، وهو يفخر بقومه بنى النجار ويصفهم بالأسود، وقد حذف حسان المقدمة الطللية، ووصف الناقة، ووصف الرحلة؛ لأن ما يشغل فكره ووجدانه هو حزنه علي خبيب وتوعده لبنى فكيهة، وإشادته بقومه، وهذا الحذف كثر كماقلنا في قصائد الرثاء في العصرين الجاهلي والإسلامي ...

وفي قصيدة أخرى لحسان بن ثابت يمدح فيها رسول الله ﷺ تحت عنوان "اسم النبي" *يقول فيها*:

أغـر عليه مـن النبـوة خـاتمٌ

مـن الله مشـهود يلـوح ويشـهدُ

وضم الإله اسم النبى إلي اسمه
إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ

وشق له من اسمه ليُجله
فذو العرش محمود وهذا محمدُ

نبى أتانا من بعد يأس وفترة
من الرسل والأوثان في الأرض تعبدُ

فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا
يلوح كما لاح الصقيلُ المهندُ

وأنذرنا نارا وبشر جنة
وعلمنا الإسلام فالله نحمدُ

وأنت إله الخلق ربى وخالقي
بذلك ما عمرت في الناس أشهدُ

تعاليت ربُّ الناس عن قول من دعا
سواك إلها أنت أعلي وأمجدُ

لك الخلق والنعماء والأمر كله
فإياك نستهدى وإياك نعبد

والقصيدة إذا تتبعناها نجدها تتميز برقة اللفظ ووضوح المعاني ، وقد تخلص الشاعر فيها من المقدمات ، وانتقل إلي غرض المدح مباشرة ؛ لأن السياق لا يتحمل

سير القصيدة علي نسق الشعر القديم ، وقد وضح في القصيدة تأثر الشاعر بمعاني وألفاظ القرآن الكريم ، وإذا بحثنا في الألفاظ نجد أنها لا تحتاج إلي معجم يفك ما استغلق من معان كما في قصيدة "أبكى خبيبا" بما جعل النقاد يتهمون "حسانا" بأن شعره في الجاهلية أجود منه في الإسلام ، وهذا أمر فيه نظر ؛ لأن جودة اللفظ تتحقق حين يوضع في مكانه ولا يستطيع لفظ آخر أن يحل محله .

ومن الشعراء المخضرمين أيضاً "كعب بن زهير" توعده الرسول ﷺ حين أرسل إلي أخيه "بجير" ينهاه عن الإسلام ، ولما بلغ النبي ذلك توعده ، فبعث إليه أخوه يحذره من غضب النبي ﷺ فقدم علي رسول الله في المدينة وبعد صلاة الفجر قام فسلم علي الرسول وأنشده قصيدته "بانت سعاد" وهي في مدح رسول الله ﷺ بدأ القصيدة بقوله :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبولُ
متيم إثرها لم يفد مكبولُ

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحولُ

هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة
لا يشتكى قصر منها ولا طولُ

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلولُ

ثم ينتقل بعد المقدمة الغزلية إلي وصف الناقة متحدثا عن قوتها وضخامتها وسرعتها :

أمست سعاد بأرض لا يُبلغها

إلا العتاق النجيبات المراسيلُ

ولن يُبلغها إلا عذافرة

لها علي الأين إرقال وتبغيلُ

ويظل يعدد صفات الناقة في أكثر من عشرين بيتا . ثم يتحدث بعد ذلك عن الوشاة . وما قالوه له . وما فعلوه معه . وقد انتقل الشاعر في كل حالة بطريقة لم تشعر خلالها بتفكك القصيدة أو عدم ترابط أجزائها:

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم

إنك يا ابن أبى سُلمى لمقتولُ

وقال كل خليل كنت آمله

لا ألهينك إنى عنك مشغولُ

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم

فكل ما قدر الرحمن مفعولُ

كل ابن انثى وإن طالت سلامته

يوما علي آلة حدباء محمولُ

ثم يعتذر لرسول الله ﷺ ويطلب منه العفو، وألا يأخذه بأقوال الوشاة، ثم يمدح النبي ﷺ **حتى يصل إلي قوله:**

إن الرسـول لنـور يستضـاد بـه

مهنـد مـن سـيوف الله مسـلولُ

ويختتم القصيدة بمدح الصحابة:

لا يفرحـون إذا نالـت رمـاحهمُ

قومـا وليسـوا مجازيعـا إذا نيلـوا

لا يقـع الطعـن إلا في نحـورهمُ

ومـا لهـم عـن حيـاض المـوت تهليـل

فيلقي النبي ﷺ بردته عليه مسامحا إياه، غافرا له ذنبه.

والمتأمل للقصيدة يجدها سارت علي نسق القصيدة الجاهلية، فقد بدأت بالمقدمة الغزلية، وهي مقدمة لتصوير أحاسيس الشاعر، ثم وصف الناقة فأطال في وصفها، وكأنه يصور صراع الشاعر مع المأزق الذى كان فيه، ثم صعوبة الرحلة ومشقاتها ثم حديثه عن الأخلاء الذين تخلوا عنه، ثم إصراره علي الذهاب إلي النبي، وهو يأمل في عفوه وكرمه، ثم مدحه لرسول الله ﷺ والصحابة.

ومن الشعراء المخضرمين أيضا الحطيئة والنابغة الجعدى وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم.

وقد لعب الشعر في صدر الإسلام دوره في الدفاع عن العقيدة وفي الرد علي خصوم الإسلام .

يقول ضرار بن الخطاب وكان من الفئة المناوئة لرسول الله ﷺ في يوم بدر:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر
عليهم غدا والدهر فيه بصائر

وفخر بنى النجار إن كان معشر
أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر

فإن تك قتلى غودرت من رجالنا
فإن رجالا بعدهم ستغادر

ورد عليه كعب بن مالك مبينا له أن ما يتعجب منه شئ ليس بعجيب لأن الله ناصر دينه برسوله وبالأوس من حوله ، كما أن شهداء المسلمين في الجنة وقتلى قريش المناوئين لرسول الله في النار.

يقول كعب بن مالك :

عجبت لأمر الله والله قادر
علي ما أراد ليس لله قاهر

وفينا رسول الله والأوس حوله
له معقل منهم عزيز وناصر

فلما لقيناهم وكل مجاهد
لأصحابه مستبسل النفس صابر

شــهدنا بــأن الله لا رب غــيره

وأن رســول الله بــالحق ظــاهر

فأمسوا وقود النــار في مستقرها

وكــل كفــور في جهــنم صــائر

ولو تأملنا مقطوعة كل من ضرار وكعب نجد أنهما تخلصا من المقدمة الطللية ووصف الناقة والرحلة في الصحراء فهما قد دخلا في الغرض الأساسي مباشرة ناحية أخرى سارا في قصيدتيهما علي نفس الوزن ونفس القافية ، أيضاً استهل الأول قصيدته بالتعجب الشكلي فأجابه الآخر بالتعجب الإيماني ، ولو تأملنا الألفاظ سنجدها تميل إلي السهولة ، والصور تميل إلي الوضوح ، والفكرة ليست في حاجة إلي تعقيد ، ولو تأملنا كل النصوص التي دارت بين شعراء مكة والمدينة في هذه الحقبة لوجدنا أنها تدور بين مسلمين اعتزوا بإسلامهم وقرشيين أنكروا هذا الدين .

يقول عبد الله بن الزبعرى يبكي قتلى بدر :

مــاذا علــي بــدر ومــاذا حولــه

مــن فتيــة بــيض الوجــوه كــرامِ

حيــا الإلــه أبــا الوليــد ورهطــه

رب الأنــــام وخصــــهم بســــلامِ

وإذا بكــى بــاك فــأعول شــجوه

فعلــي الــرئيس الماجــد ابــن هشــام



فأجاب حسان بن ثابت قائلاً :

ابـك بكـت عينـاك ثـم تبـادرت

بـدم يجـل غروبهـا بسـجام

مـاذا بكيـت علـي الـذين تتـابعوا

هـلا ذكـرت مكـارم الأقـوام

وذكـرت منـا ماجـدا ذاهمـة

سمـح الخلائـق ماجـد الإقـدام

من هنا يتضح لنا أن الخصومة بين ملة والمدينة لم يكن أساسها العصبية ولا القبيلة ولا الرياسة ولا المياه ولا المراعي كما كانت الخصومات في الجاهلية وإنما أساسها العداء للدين الجديد .

وكما تخلص الرثاء من المقدمات في الشعر الجاهلي ا كذلك تخلص الرثاء في صدر الإسلام من هذه المقدمات ،

يقول : عبد الله بن رواحة في رثاء حمزة ﷺ :

بكـت عينـي وحـق لهـا بكاهـا

ومـا يغنـي البكـاء ولا العويـلُ

علـي أسـد الإلـه غـداة قـالوا

أحمـزة ذاكـم الرجـل القتيـلُ ؟

عليـك سـلام ربـك في جنـان

مخالطهـا نعـيمٌ لا يـزولُ

وبعد وفاة النبي ﷺ حث الخلفاء علي حفظ ما هو حسن مفيد من الشعر ، وكانوا يعاقبون من يخرج عن سياج العفة والدين ، فهذا عمر بن الخطاب يحبس الحطيئة لإقذاعه في هجاء "الزبرقان بن بدر" ولم يطلقه من سجنه إلا علي أثر قصيدة رق لها عمر ومنها قوله :

مــاذا تقــول لأفــراخ بــذى مــرخ

زغــب الحواصــل لا مــاء ولا شــجرُ

ألقيــت كاســبهم في قعــر مظلمــة

فــاغفر عليــك ســلام الله يــا عمــرُ

أنــت الأمــام الــذى مــن بعــد صــاحبه

ألقــى إليــك مقاليــد النبــى البشــرُ

وهكذا نجد الخلفاء قد حصروا حفظ الشعر وروايته ، لا للتلهى به في أغراضه المختلفة ، ولا لتأديب النفس وكبح جماحها ، بل لأنهم وجدوا أن تعلمه ضرورى لفهم القرآن الكريم ، فقد روى عن ابن عباس قوله :

"إذا قرأتم شيئا في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب" .

الفصل الثاني :

النثر في عصر صدر الإسلام

كان النثر امتدادا للنثر الجاهلي وكان للقرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ الدور الكبير في تطوير النثر ، وسبق أن تحدثنا عن حرص النبي علي نشر الكتابة بين المسلمين وقلنا بأنه جعل فداء القارئ الكاتب من أسرى بدر تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ،

معنى ذلك أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية شجعوا المسلمين علي تعلم القراءة والكتابة ، وبهذا شاعت الكتابة بين المسلمين مما جعلهم يستخدمونها في كل شئون الحياة ، وقد تطورت الكتابة الفنية وعلي الأخص كتابة الرسائل التي أخذت تتدرج في النضج حتى وصلت إلي ذروتها في عصر بنى أمية علي يد الأديب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور.

- *مراحل كتابة الرسائل في صدر الإسلام :*

المرحلة الأولي : فترة النبوة :.

وتشمل الرسائل والعهود النبوية ولنأخذ مثالا علي ذلك : كتب رسول الله إلي بني ضمرة من بكر من كنانة[1] :

"أنهم آمنون علي أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر علي من دهمهم بظلم ، وعليهم نصر النبي ﷺ ما بل بحر صوفة ، إلا أن يحاربوا في دين الله ، وأن النبي إذا

---

(١) كان رسول الله ﷺ يملي ويكتب أحد الصحابة وذلك نظرا لأميته ﷺ .

دعاهم أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله ، ولهم النصر علي من برّ منهم واتقي"

.والرسالة كما نرى تخلو من أساليب البيان الفنى إلا نادرا وذلك لأن الرسالة شأنها شأن سائر الرسائل في تلك الحقبة الأولي الغرض الأساسي لها أداء المعنى المراد تبليغه ، ففيها ترسل العبارة إرسالا ، وتكتب الرسالة علي قدر المعنى ، ولذلك خلت الرسالة من الصور إلا قليلا مثل قوله : "بحر صوفه" .

والملاحظ أن الرسالة خلت من أية قواعد فنية سواء في البدء أو الختام . كذلك خلت من أساليب المبالغة والتفخيم والتعقيد .

وبعد تقدم الزمن قليلا تطورت الرسالة فبدأ ظهور نوع من التقنين للبدء والختام أما من حيث الأسلوب فيتردد بين الإطناب والإيجاز ، ولنتابع النموذج التالي والذي يمثل ما ذكرناه :

كتب رسول الله ﷺ إلي هوذة بن علي صاحب اليمامة : "من محمد رسول الله ﷺ إلي هوذة بن علي : سلام علي من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلي منتهى الخف والحافر ، فاسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك" .

إذا تأملنا النموذج السابق نجده يتراوح بين الإطناب والإيجاز فمن الإيجاز "اسلم تسلم" فبين معنى الكلمتين نجد كل ما جاء به الإسلام . كذلك نجد أن الرسالة خلت من الخاتمة وتضمنت المقدمة وإذا تتبعنا أخريات العهد النبوى فسنجد الرسالة قد تطورت في شكلها ومضمونها ولنضرب لذلك مثلا برسالة النبي ﷺ لأكيدر دومة :

كتب رسول الله ﷺ إلي أكيدر : "من محمد رسول الله ﷺ لأكيدر دومه حين أجاب إلي الإسلام وخلع الأنداد والأصنام : أن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعاصي ، وأغفال الأرض ، والحلقة والسلاح ، والحافر والحصن ولكم الضاحنة من النخل ، والمعين من المعمور ، ولا تعدل سارحتكم ، ولا تعد فاردتكم ، ولا يحظر عليكم النبات ، تقيمون الصلاة وقتها ، وتؤدون الزكاة بحقها ، عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء ، شهد الله ومن حضر من المسلمين" .(١)

في الرسالة نجد الرسول يميل إلي تفضيل لفظه علي أخرى مثل اختيار كلمة (وخلع) بدل (وترك) لما في الأولي من معنى الترك وزيادة ، وعلي الرغم من طول الرسالة فقد مالت إلي الإيجاز في بعض عباراتها كالإيجاز بالحذف في (لا تعدل سارحتكم) أي عن المرعي .

من هنا نجد أن الطابع العام للكتابة في السنوات الخمس الأولي من الهجرة هو الميل إلي البساطة والسهولة في التعبير عن المضمون ، وكذا الإيجاز والنفاذ إلي القصد مباشرة ، والإقلال من أساليب الزخرف ومن البيان ، وكذلك خلو الرسالة من عبارات التعظيم والتفخيم إلا ما ندر.

المرحلة الثانية : فترة الخلفاء الراشدين :.

نمت الرسالة في عهد الخلفاء الراشدين وتطورت إلي حد ما في الكتابة ولنأخذ بعض النماذج للدلالة علي تطور الرسالة في عهدهم .

---

(١) الضاحية : الناحية البارزة ، والمراد : أطراف الأرض
الضحل : القليل الماء
البور : الأرض التى لا تزرع
المعاصي : التى لا عمران فيها
أغفال الأرض : التى لا أثر فيها
الضاحنة من النخل : ما تضمنته القرى منه .
سارحتكم : دوابكم الراعية
لا تعد فاردتكم : لا تضم إلي مال الصدقة

عهد أبو بكر الصديق إلي عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -بالخلافة لما حضرته الوفاة فقال : "بسم الله الرحمن الرحيم"

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالحياة ، وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها العابد ويتقى فيها الفاجر. إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن برّ وعدل فذلك علمى به ، ورأيىى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" .

فموضوع العهد مجال جديد للكتابة ، والعبارة تميل إلي الجودة ، ويظهر ذلك في قصر الفقرات ، ومحاولة الموازنة بينها ، والتقديم والتأخير ، والبساطة وعدم التكلف ، والقصد إلي الغرض في معنى محكم ، ولفظ مختصر يميل إلي الجزالة غالبا، وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد عمر ﷺ كثرت الرسائل المتداولة مما طور فن الرسالة حيث اتسعت مجالاتها وتجددت أفكارها ، وتنوعت موضوعاتها ، ومن أبرز النماذج التي تعبر عن هذه المرحلة من تطور فن الكتابة ، رسالة عمر بن الخطاب التي بعث بها إلي أبي موسي الأشعرى والتى نصها : "بسم الله الرحمن الرحيم"

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلي عبد الله بن قيس :

سلام عليك

أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في

حيفك ، ولا ييئس ضعيف من عدلك ، البينة علي من أدعى ، واليمين علي من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم ، فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلي الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل – الفهم الفهم مما تلجلج في صدرك مماليس في كتاب ولا سنة .... الخ"

إذا تأملنا الرسالة نجد فيها المعنى العميق واللفظ الجيد والعبارات التي تجمع بين دقة المعنى وبلاغة اللفظ .

وفي عهد عثمان وجد نوع آخر من التطور في كتابة الرسائل وأبرز ملامح هذا التطور هو اصطناع أسلوب الجدل والحوار والاحتجاج والبرهنة ، كما اعتنى بالأسلوب ، وحبك العبارة وحسن تحليلها ، وكان من أبرز سمات الكتابة في تلك الحقبة عمق المعنى ، وسلامة الأسلوب ، والاقتصاد في الخيال ، والبعد عن التكلف والاستشهاد بالشعر في ثنايا الرسائل أو في ختامها ، والقصد إلي الغرض دون إطالة أو تكلف فالمعنى يقتصر علي الحقائق دون مبالغة أو تهويل ، ومع ذلك فتطور الرسائل في عصر صدر الإسلام كان محدودا ، ومن هنا ظل فن الكتابة بعيدا عن طابع الصناعة الفنية لقرب العهد بالبداوة من ناحية ، وانعدام الكتابة الديوانية بالمعنى الاصطلاحى المعروف من ناحية أخري .

الخطابة في صدر الإسلام

تطورت الخطابة في صدر الإسلام فبعد أن كانت أداة اجتماعية مهمة للحرب والصلح والوفاء والزواج والمفاخرة والوعظ تغيرت مع الإسلام فصارت دعوة دينية سياسية وحربية واجتماعية .

ومن يتتبع نصوص الخطابة ويتمعن في نماذجها يتبين له متانة أسلوبها وعذوبة ألفاظها ، وقوة تأثيرها ، واقتباسها من القرآن ، وسيرها علي هدية في الإرشاد والإقناع ، وزادها عظمة ورقيا مجئ القرآن نثرا لا شعرا ، وكذلك مجئ رسول الله ﷺ ناثرا يدعو إلي الدين ويبين أحكامه ويرسم سياسة الدولة الدينية والاجتماعية والتشريعية ، ويحمس الجند ويحثهم علي القتال والدفاع ، وقمع الفتن، ورد البدع ، ثم جاء الخلفاء الراشدون فانتهجوا طريقته ، يدعون إلي الدين ويشرحون تعاليم الإسلام وينفذون العهود والوصايا للقواد والولاة والقضاة ، وكان للخطابة دورها عندما حدث خلاف بين المهاجرين والأنصار بعد وفاة رسول الله ﷺ ، وعندما ارتدت الجزيرة العربية عن الإسلام وعند قيادة الجيوش لمحاربة المرتدين ،

فالخطابة إذن في صدر الإسلام تناولت كل هذه الأحداث ، وتناولت الفتن التي اتسع أفقها ، وعظم شأنها ، كالذى حدث في فتنة عثمان ؓ أو كالذى حدث بين علي – كرم الله وجهه – والخوارج فظهرت قوة الحوار ، وشدة الجدل ، ونصوع الحجة ، وكان علي بن أبى طالب أفصح العرب بيانا بعد رسول الله ﷺ ؛ لذلك

وجدت الخطابة لها في هذا العصر ما أكسبها الرقى والازدهار ، كذلك بقيت لها عاداتها القديمة من اعتجار العمامة ، والاشتمال بالرداء ، واتخاذ المخصرة ، والوقوف علي مكان عال من الأرض أو منبر ، والاعتماد علي قوس في الحرب ، وعلي عصا في وقت السلم ، وكانت الخطبة تبدأ بالحمد لله وتوحيده والثناء عليه ثم الصلاة علي محمد ﷺ ، وتميزت الخطابة بالإيجاز والإطناب حسب مقتضى الحال ، وتبعا لدواعي الخطبة ، فقد خطب رسول الله ﷺ من لدن العصر حتى دنت الشمس للمغيب ، وخطب عمر بن الخطاب ؓ لما ولي الخلافة فلم يزد علي قوله : "أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه" ثم نزل ، وإذا تأملنا الخطبة الأولي نجد أنها تميل إلي الإطناب ، تتحدث في أكثر من موضوع ، قلة الصور البيانية ، وضوح الفكرة ، انتفاء اللفظ ، وإذا تأملنا الخطبة الثانية نجد أنها تميل إلي الإيجاز والموازنة ، وتتسم بسهولة اللفظ ووضوح المعنى ، وعدم التكلف في المحسنات .

وإذا عددنا الخطباء في عصر الإسلام فسنجدهم كثيرين ، أولهم رسول الله ﷺ وأعظمهم الخلفاء الراشدين ، وكثير من الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين .

نماذج من الخطابة

- **النموذج الأول :**

لما نزل قوله تعالي :

﴿ .... فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[1]

دعا رسول الله ﷺ قومه وهو علي جبل الصفا ثم قال :

"أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟

قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قط ، قال : فإني نذير لكم بين عذاب شديد" .

- **النموذج الثاني :**

وخطب يوما فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

"أيها الناس إن لكم معالما فانتهوا إلي معالكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلي نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين ، بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين آجل قد بقي لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار" .

- **النموذج الثالث :**

وخطب أبو بكر ﷺ يوم السقيفة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

"أيها الناس : نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس رفادة في العرب ، وأقربهم رحما برسول الله ﷺ ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن الكريم عليكم ، **قال تبارك وتعالي :**

---

(١) سورة الحجر: من الآية ٩٤ .

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ...... ﴾[1]

فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الغنى، وأنصارنا علي العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا يدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فلا تنقموا علي إخوانكم ما منحهم الله من فضله" .

- النموذج الرابع :

لما تولى عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : "إنى داع فأمنوا ، اللهم إنى غليظ فليّنى لأهل طاعتك ، ووفقنى للحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة علي أعدائك ، وأهل الفجر والخبث والنفاق من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ......" .

- النموذج الخامس :

من خطب عثمان ﷺ ، وقد نقم الناس عليه :

"إن لكل شئ آفة ، وإن لكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة عيابون طنّانون يظهرون لكم ما تحبون ، ويسرون ما تكرهون ، لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علي ، ولكن قمعكم وزجركم زجر النعامة ، والله لأنى أقرب ناصرا وأعز نفرا ....."

- النموذج السادس :

خطب الإمام علي بن أبى طالب – كرم الله وجهه – لما بويع علي الخلافة بعد قتل عثمان – رحمه الله :

---

(١) سورة التوبة الآية من ١٠٠ .

"دعوني والتمسوا غيري ، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه ، وألوان لا تقوم لها القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغمت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلي قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزير خير لكم من أمير" .

لو تأملنا النماذج السابقة نجد أنها دخلت علي الغرض منها مباشرة ، أيضاً لم يقف الإسلام فيها عند حد معين فقد صبغها بصبغة تختلف عما كانت عليه في العصر الجاهلي .

- *وقد نجد مجالات أخري دخلت فيها الخطابة أهمها :*

مجالات القضاء ، وخطب الجهاد والغزو ، كما ظهرت ملامح الخطابة السياسية حتى أصبحت قسما مهما من الخطابة الإسلامية في آخر هذا العصر ، وقد تحدثنا عن تطور الخطابة في الشكل والمضمون والأسلوب من قبل .

الملامح الفنية العامة للخطابة

أ: الألفاظ :

ساعد القرآن الكريم والحديث الشريف علي تهذيب الألفاظ ، والعناية باختيار السهل العذب ، والبعد عن الغريب والحوشي من الألفاظ ؛ لأن الحضارة الإسلامية كانت في حاجة إلي تطويع اللفظ بما يتفق مع الدين الجديد .

ب: المعاني :

تأثرت الخطابة بالمعاني القرآنية استمدادا واقتباسا ، واستشهادا ، كما مالت الخطابة إلي التعبير عن المعاني تعبيرا تصويريا ، مستعينة بالخيال من تشبيه واستعارة وكناية وخاصة في أواخر هذا العصر .

ج: الأسلوب :

يتجلى أثر القرآن في الخطابة أكثر مما يتجلى في الأسلوب ، حيث عكف الخطباء علي القرآن ، وحاولوا محاكاة أساليبه ، والتأثر به في البيان وحسن الأداء ، فجعلوا أسلوب القرآن هو المثل فتفننوا في صياغة الأساليب وتنويعها .

وقد خلا الأسلوب من السجع إلي حد بعيد ، واعتمد علي قوة الألفاظ وعذوبتها ، والاعتماد علي الموازنة والازدواج .

د: التميز بالوحدة الموضوعية :

وكان عماد هذه الوحدة التلاحم بين الفقرات يضاف إلي ذلك الوضوح الذي يقوم علي التقسيم المتدرج ، وشيوع الألفاظ ، وسهولتها .

هـ: الميل إلي الإيجاز القائم علي السجية ، والمؤدى للفكرة من أقرب طريق .

و: اتخذت الخطابة في المقدمة طريقة واحدة ، وهى البدء بحمد الله والثناء عليه وتعظيمه ، وتضاف إلي ذلك الصلاة علي النبى أما الختام فلم يأخذ طابعا واحدا .

الباب الثالث

العصر الأموى

الفصل الأول :

الشــعــــر

كانت القصيدة في العصر الأموى امتدادا للعصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام، ومن أهم شعراء العصر الأموى : الفرزدق وجرير والأخطل والشريف الرضى وكثير عزة والخنساء وذو الرمة ، وجميل بثينة ، ومجنون ليلى ، وقيس بن ذريح ، والكميت ، والطرماح ، وعروة بن حزام ، ونصيب بن رياح ، والمقنع الكندى، والمثقب العبدى وغيرهم .

وقد رجع الباحثون إصابة الشعر العربي بالجمود والركود بعد ظهور الإسلام ؛ ذلك لأن الدوافع التي كانت تدفع الشعراء إلي قول الشعر في العصر الجاهلي قد اختفت ، فقد حارب الإسلام العصبيات والمفاخرات والمنازعات بين القبائل ؛ لأن هذه الأشياء أصبحت تخالف روح الإسلام الذى دعا إلي مكارم الأخلاق ، وإلي المحبة بين الناس ، وإلي الفضيلة والإخاء ، وبيّن أن التمايز بين الناس يكون بالتقوى والعمل الصالح . كذلك شُغل المسلمون عن الشعر وروايته بالفتوح الإسلامية، وما حققته من انتصارات وغنائم ، وكذلك شغلوا بما جد من معارف إسلامية كالتفسير والمغازى والحديث والسّير.

ولم يطل أمد الركود الأدبي طويلا ، فسرعان ما نهض الشعر في أماكن مختلفة من الدولة الإسلامية ؛ لنشوب الفتن الداخلية وظهور الأحزاب السياسية . ومن ثم رجعت العصبيات القبلية والعادات الجاهلية ، وشاع الغناء والشراب والمجون في

بيئة البصرة ، والكوفة والحجاز والشام حيث نشأ جيل جديد من الشعراء ولد في ظل الإسلام ، وعاش في دولة الإسلام بما جدّ عليها ، فتأثر بتياراتها السياسية والاجتماعية والدينية وتأثر أيضا بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، فأنتجت هذه المجموعة شعرا إسلاميا ، عبروا فيه عن كل جوانب الحياة الإسلامية فأحسنوا التعبير عنها ، وأجادوا تصويرها ، وأضافوا أنواعا أدبية جديدة اقتضتها ظروف الحياة السياسية والاجتماعية كالغزل والسياسة والزهد والخمريات حتى قيل إن هذه الأنواع الأدبية قيلت لترضى ميول الجماهير ويؤيدنا في ذلك ما ذكره البغدادى عن "عكرمة الضبى" عن أبيه قال : أدركت الناس بالكوفة من لم يرو : طربت وما شوقا إلي البيض أطرب) فليس بشيعى ، ومن لم يرو : (ذكر القلب إلفه المهجورا) فليس بأموى ، ومن لم يرو : (هلا عرفت منازلا بالأبرق) فليس بمهلبى .

وقال ابن سلام :[1] "مات كثير عزة وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد ، فاحتفلت قريش في جنازة كثير ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله" .

فإذا تأملنا ما ذكره البغدادي لاتضح لنا شغف الكوفيين بشعر السياسة ، وقول ابن سلام يدلنا علي شغف الحجازيين بشعر الغزل ، وإعجابهم به إعجابا شديدا ، لأن هذا الفن خفف أثقالهم ، وصور آمالهم ، وأرضي نزعاتهم ، وقد تطورت القصيدة العربية في الكوفة والحجاز والشام في بنائها وأسلوبها ومعانيها ، وأوزانها ، وقوافيها ، فهى من حيث البناء تألفت غالبا من غرض واحد سواء أكان غزلا أم سياسة أم وصف خمر ، أم زهد ؛ ولذلك قل عدد أبياتها بالقياس إلي عدد أبيات

---

(١) طبقات الشعر والشعراء صـ١٢٤

القصيدة الجاهلية التي كانت عبارة عن عدة أغراض تبدأ بالمقدمات الطللية أو الغزلية ثم وصف الناقة ثم الرحلة وما تتبعه من مشقة ، ثم الغرض من القصيدة ، وبالتالي قصرت القصيدة حتى أصبحت في كثير من الأحيان عبارة عن مقطوعة شعرية من عدة أبيات ، ويظهر ذلك في شعر الخوارج وفي أشعار الغزليين.

ومن هنا ترك أغلب الشعراء في الكوفة والبصرة والحجاز والشام مقدمات النسيب التي كان الجاهليون يفتتحون بها قصائدهم ومثال ما قلناه قصيدة "الكميت الأسدى" التي يقول فيها :

مالى في الدار بعد ساكنها

ولو تذكرت أهلها أربُ

يا باكى التلعة القفار ولم

تبك عليه التلاع والرحبُ

أبرح بمن كلف الديار وما

تزعم فيه الشواحج التعبُ

وإذا تأملنا النص السابق نجد أن الشاعر قد سخر من النسيب والنسابين ، ومع ذلك فأسلوب القصيدة اتسم بالرقة والعذوبة كما غلب عليه الوضوح والجزالة وقد أحس المعاصرون من أهل البصرة بتطور أسلوب القصيدة في الحجاز والكوفة فقالوا إن في أسلوب الحجازيين لينا وسهولة ، وأحسوا أيضاً بأن في أسلوب بعض الكوفيين كالكميت والطرماح ميلا وانحرافا عن الأساليب العربية القديمة ؛ لاستعمالهما الغريب في غير موضعه ؛ ولتأثرهما بلغة السواد من الناس ، وأما

المعاني فيغلب عليها الجدّة والابتكار؛ لأنهم استمدوا موضوعات قصائدهم من مقومات الحياة الإسلامية ، ونكتفي بذكر بعض المعاصرين لهؤلاء الشعراء والتي تبين ما أضافه الشعراء علي المعاني من جدة وابتكار.

قال عبد الملك بن مروان : يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج ، ألا قلتم كما قال أيمن بن خريمة في بني هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم

وليلكم صلاة واقتراء

وفي كتاب الأغاني أنشد جرير قول عمر بن أبي ربيعة :

سائلا الربع بالبلى وقولا

هجت شوقا لي الغداة طويلا

وفي كتاب الأغاني أيضا سمع الفرزدق عمر بن أبي ربيعة ينشد :

جرى ناصح بالود بيني وبينها

فقربني يوم المصاب إلي قتلي

ولما بلغ قوله :

فقمن وقد أفهمن ذا اللب أنما

أتين الذي يأتين من ذاك من أجلي

صاح الفرزدق ، هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وبكت علي الديار ، وإن كانت هذه الآراء انطباعية إلا أنها بينت تطور الأسلوب وجدة المعانى .

أما التجديد في الأوزان والقوافى فقد كان كثيرا ، فبينما كان شعراء البصرة يسيرون علي نمط الأوزان الجاهلية القديمة نجد شعراء الكوفة والشام والحجاز يجنحون إلي استعمال الأوزان النادرة كالمديد والأوزان القصيرة كالمتقارب والخفيف والرمل ومجزوء الكامل .

ونظرة سريعة في أشعار عمر بن أبى ربيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، والوليد بن يزيد ترينا مقدار هذا التطور في الأوزان ، وكما تطورت الأوزان تطورت القوافي إذ مال الشعراء إلي استعمال الحروف اللينة والرخوة والتي لها إيقاع موسيقي ساحر في قوافيهم .

يقول ابن قيس الرقيات :

إن الحوادث بالمدينة قد
أوجعتني وقرعن مروتيه
وجببنني جب السنام ولم
يترككن ريشا في مناكبيه

وقد تأثر في قافيته بقول الحق سبحانه وتعالى :

"ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانية" .

ويتوقف مؤرخو الأدب العربي عند شعراء الغزل في بداية العصر الأموى مثل قيس وليلي ، وقيس ولبنى ، وجميل وبثينة وغيرهم ، ويعدونهم مدرسة أدبية متميزة في تاريخ الأدب العربي ، فمعظم الأدب العربي عندما يقترب من المرأة يقترب منها جسدا كوصف الأعشى وامرئ القيس في معلقتيهما وكوصف عمر بن أبى ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات والعرجى وغيرهم لمحبوباتهم في عصر بنى أمية .

وإذا أخذنا نماذج من شعر هذه المدرسة نجدهم قد تخلصوا من المقدمات وانتقلوا مباشرة إلي الغرض من الموضوع فأصبحت قصائدهم في أغلبها مقطوعات قصيرة تحققت فيها الوحدة العضوية .

يقول قيس بن ذريح :

وما أحببت أرضكم ولكن
أقبل إثر من وطئ الترابا

لقد لاقيت من كلفي بليلى
بلاءً ما أسيغ به الشرابا

إذا نادى المنادى باسم ليلي
عييت فما أطيق له جوابا

فهذا فعل شبحينا جميعا
أرادا لى البلية والعذابا

ويقول كثير عزة :

ولمـــا رأت وجـــدى بهـــا وتبينـــت

صـــبابة حـــران الصـــبابة صـــادِ

أدلـــت بصـــبر عنـــدها وجـــلادة

وتحســـب أن النـــاس غـــير جـــلادِ

فيـــاعزّ صـــادى القلـــب حتـــى يـــودنى

فـــؤادك أو ردّى علـــىّ فـــؤادي

وقد حفل العصر الأموى بالشعر السياسي خاصة بعد ظهور الأحزاب السياسية من أموى وشيعى ومهلبى ، كما حفل أيضا بشعر النقائض التي غلب عليها التقليد والمحافظة ، وإرضاء النقاد بالسير علي نظام القصيدة الجاهلية وعناصرها وذلك لأن جميع قصائد جرير وأهم قصائد الفرزدق كانت تتألف من عدة أغراض ، فقد كان الشاعران غالبا ما يفتتحان نقائضهما بالنسيب والبكاء علي الأطلال والشكوى من التعب والسير وإنضاء البعير ثم يعقبان علي ذلك بالغرض من القصيدة سواء أكان الغرض فخرا أم مدحا أم رثاء أم هجاء أم وصف مشاهد البادية أو وصف المعارك ، والأمثلة علي ذلك كثيرة ففى المثال الذى سنذكره نرى الفرزدق ينسب ويشبب ويبكى الطلول ويصف لهوه القديم .

يقول الفرزدق :

ألســـتم عـــائجين بنـــا لعنـــا

نـــرى العرصـــات أو أثـــر الخيـــامِ

فقـــالوا إن فعلـــت فـــأغن عنـــا

دموعـــا غـــير راقيـــة الســـجامِ

فكيـــف إذا رأيـــت ديـــار قـــوم

وجيرانـــا لنـــا كـــانوا كـــرامِ

أكفكـــف عـــبرة العيـــنين منـــى

ومـــا بعـــد المـــدامع مـــن كـــلامِ

ثم يصف راحلته وما أصابها من ضعف وهزال وما سينالها من خير علي يدى الخليفة :

أقـــول لهـــا إذا عطفـــت وعضـــت

بموركـــة الـــوراك مـــع الزمـــامِ

إلام تلفـــتين وأنـــت تحتـــى

وخـــير النـــاس كلـــهم أمـــامي

متـــى تـــأتى الرصـــافة تســـتريحى

مـــن الـــتهجير والـــدبر الـــدوامى

ويُلقـــى الرحـــل عنـــك وتســـتغيثى

بمـــلء الأرض والملـــك الهمـــام

ثم ينتقل بعد ذلك إلي المديح ثم الهجاء الذى يختتم به النقيضة .

وقد التزمت النقائض أكثر البحور دورانا في الشعر الجاهلي كالطويل والكامل والوافر والبسيط والمتقارب والرجز، والملاحظ أن أغلب معانى النقائض استمدت من الأدب الجاهلي سواء كان الأدب شعرا أم أمثالا أم قصصا، وقد اعترف الفرزدق نفسه بأنه تتلمذ علي يد امرئ القيس والمخبل السعدى وعلقمة الفحل والأعشى ولبيد وزهير فيقول :

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا

وأبو اليزيد وذو القروح وجرول

والفحل علقمة الذى كانت له

حلل الملوك ، كلامه لا ينحل

وأخو بني قيس وهن قتلنه

ومهلهل الشعراء ذاك الأول

والأعشيان كلاهما ومرقش

وأخو قضاعة قوله يتمثل

وقد تأثرت النقائض أيضا ببداوة الأسلوب لإعجاب اللغويين بالشعر الحوشي وتقديمهم قائليه علي غيرهم ؛ لهذا نشأ عند الفرزدق وجرير ميلا شديدا إلي مجاراة أساليب القدماء البدوية مما جعل نقائضهما تمتلئ بالألفاظ الغريبة والمهجورة كما استمدا من البيئة الصحراوية بداوة الخيال ، فسارت تشبيهاتهما

علي النحو الذى نراه متبعا في الشعر الجاهلى ، وبذلك فرض الشعر القديم نفسه علي كبار الشعراء عن طريق النقاد الذين فرضوا منهج القصيدة القديمة من حيث الأسلوب والمعانى والتشبيهات ، وبذلك خضع شعراء البصرة للنحاة في البيئة البصرية ، فغلب علي شعرهم التقليد والمحافظة علي النهج القديم ، بينما غلب علي شعراء الحجاز والكوفة والشام التجديد في قصائدهم .

ولعل نشوء فن المديح وازدهاره كان بسبب العصبيات القبلية والمفاخرات والخصومات العنيفة ، ومواسم المربد ، وتنافس الشعراء فيها ، ودور الحكام وإحيائهم للعصبيات ، كل ذلك كان سببا في نشوء فنون الفخر والهجاء والحماسة وغير ذلك من الأغراض الجاهلية .

وقد يكون من أسباب تجديد الشعر في الألفاظ والمعاني والأسلوب والتشبيهات في الشام والكوفة والحجاز والمدينة هو تحول المجتمع العربى إلي مجتمع مدني ، ومن مجتمع صيد ورعى إلي مجتمع تجارة وثراء فعمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات من قريش والعرجى من أثرياء ثقيف والأحوص من الأنصار .

وبذلك تغير شكل القصيدة عند هؤلاء لفظا ومعنى وخيالا ، وانعكست ظاهرة الثراء علي ألوان الشعر ومنها شعر الغزل .

يقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

ألا هزئت بنا قرشية يهتز موكبها

رأت بي شيبة في الرأس مني ما أغيبها

لها بعل غيور قاعد بالباب يحجبها

يرانـــي هكـــذا أمشـــي فيوعـــدها ويضـــربها
ظللـــت علـــي نمارقهـــا أفـــديها وأخلبهـــا
أحـــدثها فتـــؤمن لـــي فأصـــدقها وأكـــذبها
فلمـــا أن فرحـــت بهـــا ومـــال علـــي أعـــذبها
شـــربت بريقهـــا حتـــى نهلـــت وبـــت أشـــربها
وأضـــحكها وأبكيهـــا وألبســـها وأســـلبها
فكانـــت ليلـــة في النـــو م نســـمرها ونلعبهـــا[1]

وإذا نظرنا إلي المقطوعة وتأملناها نجد أنها تعبر عن مجتمع الأثرياء اللاهين الذين يمزجون الترف بالشهوة ، والشهوة بالفن ، وقد قرن فيها الشاعر اللهو بعذب الحديث ، بل وأيضاً بالغناء ، وقد شجع الخلفاء هذا الاتجاه حتى ينشغل الناس عن نظام الحكم في هذه الأونة ، فيتركون السياسة إلي اللهو ، وإلي إرضاء مستمعيهم بما يلذ لهم عوضا عن التعبير عن مكنون أنفسهم ، وأصبح الغزل مقصدا في ذاته لا تمهيدا للقصيدة ، وأصبحت القصيدة عند شعراء الشام والحجاز والكوفة والمدينة تدور في غرض واحد ، وبالتالي أصبح الشعر حرفة وصناعة يلجأ فيها الشاعر إلي التجديد والتحسين .

(١) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات .

اتجاهات الشعر في العصر الأموي

الاتجاه الأول :

السير علي منهج القصيدة الجاهلية في الحديث عن المقدمة الطللية أو المقدمة الغزلية أو وصف الخمر ثم الحديث عن الناقة القوية التي تتغلب علي مشاق السفر ثم الرحلة في الصحراء ثم الغرض من القصيدة وكان علي راس هذا الاتجاه الفرزدق وجرير، وتبنى هذا الاتجاه شعراء البصرة، وكان للنقاد الدور الكبير في السير علي هذا النهج . فقد حاربوا كل من خرج علي عمود الشعر الجاهلي ، واستظل بظلهم من سار علي منهجهم .

الاتجاه الثاني :

تطوير القصيدة وإن كان هذا التطوير قد بدأ في العصر الجاهلي وخاصة المقطوعات وقصائد الرثاء والوصف وبعض قصائد الغزل كغزليات المرقش الأكبر والمرقش الأصغر ومن سار علي منوالهما . وقد كان لحرفية الشعراء الدور الأساسي في صناعة الشعر مما دعاهم إلي التجديد في الموضوعات والتحسين في الأداء ، وقد انصب الدور الأساسي في ذلك إلي شعراء الحجاز والمدينة والكوفة والشام وقلنا إن المجتمع قد تحول من مجتمع صيد ورعى وزراعة إلي مجتمع مدني يميل إلي الترف واللهو وبذلك عبر الشعراء بعذوبة عن هذه الفترة .

الاتجاه الثالث :

تشجيع الخلفاء للشعراء على شعر اللهو والمجون والغزل حتى ينشغل الناس عن نظام الحكم فيتركون السياسة وينشغلون باللهو وبالتالي أصبح الشعر حرفة للشعراء .

أغراض الشعر في عصر بني أمية

أولا شعر المديح :

حرص الشعراء منذ العصر الجاهلي أن يشيدوا بخصات أشرافهم وذوي النباهة فيهم ، وكان السيد لا يعد سيدا إلا إذا ذاع صيته بين القبائل ، ومضوا على ذلك في عصر صدر الإسلام ،ولكن الأمر تطور إلى أكثر من ذلك في عصر بني أمية ، فمدح الشعراء الخلفاء والأمراء والولاة وأصحاب الشرطة والعاملين على الخراج، ومن أعلام شعراء المديح :نصيب ،والقطامي ،

يقول نصيب في مدح عبد العزيز بن مروان :

فبشر أهل مصـــــر فقد أتاهم   مع النيل الذي في مصر نيـل

يقول فيحسن القول ابن ليلى   ويفعل فوق أحسن ما يقول

ويقول القطامي في مدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل   وإن بليت وإن طالت بك الطيل

ويقول في مدح ابن خارجة الفزاري :

إذا مات ابن خارجة بن حصن   فلا هطلت على الأرض السماء

ولا رجـــع البريـــد بأي خـير   ولا حملت على الطهر النسـاء

وإذا تتبعنا شعر القطامي فسنجد أهم ما يميزه صفاء موسيقاه ،وحلاوة ألفاظه ،وعذوبة أنغامه ،وتمكن قوافيه ، وجودة مطالعه .

ثانيا : شعر الهجاء والنقائض :

احتدم الهجاء في هذا العصر بتأثير العصبيات التي احتدمت في كل مكان ونشوب الحروب الكثيرة بين علي- كرم الله وجهه – وخصومه ، وعملت بجانب العصبيات أسباب كثيرة منها : وقوف شاعر في تهاجيه مع شاعر آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ،على نحو ما هو معروف عن جرير والفرزدق ، كذلك مفاضلة أحد الولاة بين من يمدحونه فيذم الشاعر المفضل ،والممدوح معا ، وقد يبطيء الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه ، وقد يحرم ممدوحا مادحا من عطائه ، فيسرع إلى هجائه.

يقول أعشى همدان في هجاء خالد بن عتاب والي الري وأصبهان :

ويركب رأسه في كل وحل ويعثر في الطريق المستقيم

وكما كانت العصبيات عاملا مهما في عودة شعر الهجاء في هذا العصر ، فإنها كانت عاملا مهما في وجود فن النقائض ، وساعد على نموها بجانب العصبيات أسباب كثيرة بعضها عقلي ، وبعضها اجتماعي.

ومن أهم من وقفوا أنفسهم على تنمية هذه النقائض : جرير والفرزدق ، وقد تكاملت حلقات المناظرات العنيفة بين الشاعرين ، وكان لكل منهما فريق ينحاز له. يقول جرير في هجاء الراعي النميري وكان من مناصري الفرزدق :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولم يلبث الراعي بعد سماع القصيدة أن انصرف من مجلس الفرزدق إلى قومه ، وهو يقول : فضحنا والله جرير. وهذا يدل دلالة واضحة على قدرة جرير على الهجاء ، وعلى قدرته على هزيمة من يقفون ضده ، ولذلك قيل بأنه أسقط في الهجاء ثلاثة وأربعين شاعرا ، وقالوا بل أكثر من ثمانين . وكان من الذين اشتبكوا معه الأخطل ن وفي الحق كان الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه جرير.

ولم تكن النقيضة تحوي فخرا وهجاء فقط ، بل كانت تحوي بجانبيهما على المديح والنسيب والغزل ،

من نقيضة للفرزدق يهجو جريرا:

ولو ترمي بلـؤم بني كليب	نجوم الليل ما وضحت لسار
ولو يرمي بلؤمـهم نـهار	تدنس لؤمهم وضح النهـار
وما يغدر عزيز بني كليب	ليطلب حاجة إلا بجـار

ويرد علي نقيضته جرير بنقيضته، فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذي اشتهر به ، فيقول :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا	وجاءت بوزواز قصـير القوادم
وما كان جار للفرزدق مسلم	ليأمن قـردا ليلة غير نائـم
أتيت حدود الله إذ أنت يافع	وشبت فما ينهاك شيب اللهازم
تتبع في الماخور كل مريبـة	ولست بأهل المحصنات الكرائم

وكان جرير يعرف كيف يستخرج التفوق من كل شيء ، ومما غاظه انضمام الأخطل النصراني إلى الفرزدق ضده ، فأخذ يُضحك كل من في المربد من الشعراء عليهما بقوله :

وإنك لو تعطي الفرزدق درهما على دين نصرانية لتنصرا

وقوله أيضا :

تحبك يوم عيدهم النصارى ويوم السبت شيعتك اليهود

ومع ذلك عندما مات الفرزدق رثاه جرير رثاء حارا قال فيه :

ولا حملت بعد الفرزدق حـــرة ولا ذات حمل من نفاس تعلت

هو الوافد المجبور و الحامل الذى إذا النعل يوما بالعشيرة زلـــت

وكما اصطدم الفرزدق بجرير ، اصطدم الأخطل به ، وربما كانت نقيضة " خف القطين " من أروع نقائضه مع جرير ، فنراه يستهلها بالغزل ، ووصف حزنه لفراق أحبته ، ويصف الخمر وصفا قصيرا ، وانتقل بعد ذلك إلى وصف ظعن الحبيبة. ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح عبد الملك بن مروان ، ومضى بعد ذلك يهجو جريرا وعشيرته كليبا هجاء مقذعا قال فيه :

خَفَّ القَطينُ فَراحوا مِنكَ أَو بَكَروا وَأَزعَجَتهُم نَوىً في صَرفِها غِيَرُ

وقال أيضا :

أما كليب بن يربوع فليـــس لهـم عند المكارم لا ورد ولا صـــــدر

مخلفون ويقضي الناس أمــرهــم وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا

ملطمون بأعفار الحياض فمـــا ينفك من دارمي فيهم أثـــــر

على العيارات هداجون قد بلغت نجران أو حدثت سوآتهم هجـر

فيرد عليه جرير مفتخرا عليه بانتصار قيس - قبيلة الشاعر - عليهم في الجاهلية :

لم يخز أول يربوع فوارســــهم ولا يقال لهم كلا إذا افتخـــــروا

نحن اجتبينا حياض المجد مترعة من حومة لم يخالط صفوها كدر

خابت بنو تغلب إذ ضل فارطهم حوض المكارم إن المجد مبتـــــدر

ومن الواضح أنه كان يرد على نقيضة الأخطل معنى معنى، فيمضي قائلا :

رجس يكون إذا صلوا أذانهـــم قرع النواقيس لا يدرون ما السور

وما لتغلب إن عدت مساعيهـــا نجم يضيء ولا شمس ولا قمـــر

الضاحكين إلى الخنزير شهوتــه يا قبحت تلك أفواها إذا اكتشروا

والمقرعين على الخنزير ميســــرهم بئس الجزور وبئس القوم إذ يسروا

جاء الرسول بدين الحق ماانتكثوا وهل يضير رســـول الله أن كفروا

ويقول في نقيضة أخرى:

إن الذي حرم المكـــارم تغلبا جـــعل النبوة والخلافة فينا

مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبينا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينـا

ومن طريف ما رواه أصحاب السير، ورواة الأخبار أن الأخطل حين حضره الموت

قيل له : ألا توصي ؟ قال على الفور :

أوصي الفرزدق عند الممات بأم جرير وأعيارها

ولم يكد يسمع بذلك جرير حتى رد عليه ببيت من وزن البيت السابق وقافيته ، قال فيه :

زار القبور أبو مالك فكان الأم زوارها

وعموما كان جرير يتفوق دائما على خصومه جميعا في الهجاء وقد شهد الأخطل له بذلك إذ قال للفرزدق :إن جريرا أوتي من سير الشعر ما لم تؤته . فالمسألة إذن لم تكن هجاء حادا وإقذاعا وسبا . بل كانت مناظرة فنية بالشعر بين ثلاثة من رواد هذا الفن الذي يعد جديدا في الشعر العربي، هذا بالإضافة إلي أنهم كانوا من أعلام شعرا المديح والفخر في العصر الأموي.

الفصل الثاني :

النثر في العصر الأموي

لم يزد النثر في العصر الأموي عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين وقد تمثل النثر في مظهرين الخطابة والكتابة ولم يزد عليهما مظهر آخر، وقد بقى كل نوع منهما علي حالته التي كان عليها ، فها هي الخطابة واقفة عند حدها التي عرفت بها في عهد صدر الإسلام ، يتعهدها ولاة الأمويين عند مجيئهم إلي الأمصار معلنين ولايتهم ثم يتعهدونها في كل يوم جمعة واعظين مذكرين ، وهم في جل خطبهم يحذرون الناس من الفتنة داعين إلي اجتماع الكلمة ، كذلك إعلان الرأى وتحميس الجند في وقت الحرب كان للخطابة دورها السياسي والاجتماعي والديني وقد حافظ الخطباء علي عادات الخطابة القديمة من اعتجار العمامة ، والاشتمال بالرداء ، واتخاذ المخصرة ، والوقوف على مكان عال ، والاعتماد علي قوس في وقت الحرب ، وعلي عصا في وقت السلم ، وتعتبر الخطابة في هذا العصر امتدادا لعصر صدر الإسلام وقد استعان الخطباء في خطبهم بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ ، وخطباء بني أمية كثيرون منهم معاوية بن أبى سفيان ، وزياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وعتبة بن أبي سفيان وموسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهم ، ...

ولنأخذ بعض نماذج الخطابة في هذه الفترة :

النموذج الأول :

خطبة لمحمد بن أبي بكر :

لما كتب عمرو بن العاص يهدده ويدعوه إلي التسليم وكان واليا علي مصر من قبل علي بن أبي طالب ﷺ رد عليه واشتد في رده ثم قال خطيبا :

" أما بعد .. فإن القوم الذين ينتهكون الحرمة ويشبون نار الفتنة ، قد نصبوا لكم العداوة ، وساروا إليكم بجيوشهم ، فمن أراد الجنة فليخرج ليجاهدهم في الله . انتدبوا مع كنانة بن بشر" .

يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة :

فانتدب الناس معه وخرجوا للقاء القوم .

إذا تأملنا النص فسنجده يميل إلي بساطة الأسلوب وإلي وضوح المضمون ، وكذا الايجاز والنفاذ إلي غرضه ، وقلة الصور وأساليب الزخرف .

النموذج الثاني

خطبة لعتبة بن أبي سفيان :

لما قدم عتبة إلي مصر سنة ٤٣هـ أقام بها شهرا ثم خرج منها وافدا علي أخيه معاوية بدمشق ، واستخلف علي مصر عبد الله بن قيس ، وكان فيه شدة فكرهه الناس بمصر ، فبلغ ذلك عتبة فرجع إلي مصر وصعد المنبر ولم يبدأ الخطبة كما بينا بالحمد لله والثناء عليه ثم الصلاة علي النبي ﷺ ثم موضوع الخطبة ثم الختام ، ولكننا سنلاحظ أنه دخل في الموضوع مباشرة ، فقال :

"يا أهل مصر تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من قال فعل ، فإن أبيتم درأكم بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول . إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه" .

يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة :

فناداه المصريون من جنبات المسجد : سمعا سمعا ، فناداهم عتبة عدلا عدلا ثم نزل .

والملاحظ في النص وضوح المعاني وسلامة الألفاظ ، وقلة الصور ، كما يلاحظ جزالة اللفظ وترابط الفكرة وتسلسلها ، وبساطة التعبير ، والإيجاز ، والاعتماد علي الموازنة والازدواج وبعض المحسنات البديعية كالسجع والطباق ؛ لأن الخطيب في حاجة إلي تغيير الأثر النفسي الذى تركه عبد الله بن قيس .

النموذج الثالث

من خطبة معاوية بن أبي سفيان حين قدم المدينة بعد مصالحة الحسن بن علي ﷺ عام ٤١هـ.

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

"أما بعد، فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي؛ ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي علي عمل ابن أبي قحافة وأردتها علي عمل عمر فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها علي سُنيات عثمان فأبت عليّ. فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة؛ مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيرلكم، فإني خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف علي من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دَبْرَ أذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه. فإن أتاكم مني خير فاقبلوه؛ فإن السيل إذا جاء أثرَى، وإن قلّ أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة"

والخطبة كما نرى تميزت بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب اعتمد فيها علي الازدواج والسجع والموازنة، الصور قليلة والمحسنات غير متكلفة، والمعنى واضح بدأها بالحمد لله والثناء عليه ثم تحدث في غرضه بوضوح، تتميز الخطبة بالترابط فقد أراد أن يبين أنه لن يسير علي خط من سبقه بل له طريقه وطريقته التي يحكمهم بها.

النموذج الرابع

من خطبة البتراء لزياد بن أبيه حين قدم واليا علي البصرة من قبل معاوية :

"أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء والغيّ الموفىَ بأهله علي النار. ما فيه سفهاؤكم ويشتمل علي حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدى الذى لا يزول أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية علي الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ؛ من ترككم الضعيف يُقهر ، ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر ، ... ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرم الإسلام ، ، ... حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا ، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ... وإنى أقسم بالله لآخذن الوَلى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والمطبع بالعاصى ، والصحيح بالقسيم ؛ حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد"

ثم يختم خطبته بقوله :

"وايُم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ؛ فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى" .

اعتمد زياد في خطبته علي الإرهاب والوعيد وقد ساق خطبته في أسلوب جزل كثرت فيه الموازنة والازدواج والسجع ، وقد اكتفينا ببعض أجزاء الخطبة فهي خطبة طويلة عنيفة تحتاج دراسة مستفيضة في أسلوبها وألفاظها ومغزاها .

النموذج الخامس

خطبة عبد الله بن الزبير بعد أن قتل أخوه مصعب :

الحمد لله الذى له الخلق والأمر وملك الدنيا والآخرة يعز من يشاء ويذل من يشاء ألا إنه لم يَذلَّ والله من كان الحق معه ، وإن كان مفردا ضعيفا ، ولم يعز من كان الباطل معه ، وإن كان في العدة والعدد والكثرة . إنه قد أتانا خبر من العراق بلد الغدر والشقاق ؛ فساءنا وسرنا ؛ أتانا أن مصعبا قُتل ، رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذى أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى بعد ذو الرأى والدين إلي جميل الصبر ، وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عزّوجلّ جاعل ذلك لنا وله ذخيرة إن شاء الله تعالى .

إن أهل العراق أسلموه ، وباعوه بأقل ثمن . لقد قُتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا خيار الصالحين . إنا والله ما نموت حتف أنوفنا ، ما نموت إلا قتلا ، قعصا بالرماح وتحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنومروان والله ما قتل منهم رجل في جاهلية ولا إسلام قط ، وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه ، فإن تقبل الدنيا عليّ لا آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عني لا أبكِ عليها بكاء الخرف المهين" .

النموذج السادس

من خطبة للحجاج بعد ولايته على العراق :

قد شمرت عن ساقها فشدوا

وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد

مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مماليس منه بد

إنى والله يا أهل العراق لا يغمز جانبى كتغماز التين ،ولا يقعقع لى بالشنان، وأن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بى ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأفرعنكم فرع المروءة ، ولأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل .

والخطبة سارت في شدتها علي نسق خطبة البتراء لزياد بن أبيه ، وقد سارت علي نمط الخطب في عصره والخطبة تتميز بشدة الأسر وقوة العبارات وجزالة اللفظ. تكثر فيها عبارات الازدواج ، استخدم بعض الصور من البيئة ، كما استشهد فيها بالشعر الذى يخدم غرضه ، والمحسنات التى استخدمها بعيدة عن التكلف . والخطب التى طرحناها موجزة وهى مع إيجازها بليغة جامعة .

أما الكتابة الفنية فهى جديدة علي البيئة العربية ، وخاصة الرسائل التى كانت في البداية امتدادا لعصر صدر الإسلام ثم أخذت تتدرج في طريق النضج حتى




أينعت في عصر بنى أميه وبخاصة في أخريات هذا العصر علي يد الأديب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور، وبذلك وجدنا آفاقها تتسع ، ودواعيها تتنوع وتتعدد ، مما اقتضى أن يخصص لها ديوان عرف بديوان الرسائل ، وكان له أكبر الأثر في إنضاجها ، وبروز عنصر الخيال فيها .

نموذج للرسائل

كتب عبد الحميد بن يحيى رسالة إلي الكتّاب فقال :

"أما بعد ... حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة ، وحاطكم ووفقكم ، وأرشدكم ، فإن الله ﷻ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين – صلوات الله عليهم أجمعين – ومن بعد الملوك المكرمين _ أصنافا وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم . فجعلكم – معشر الكتاب – في أشرفها صناعة فأنتم أهل الأدب والمروءة والحلم والروّية ، وذوى الأخطار والهمم ، بكم ينظم الملك ، وتستقيم للملوك أمورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالى في القدر السنىّ والدنىّ من ولايته . لا يستغنى عنكم منهم أحد ، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون .

فنافسوا – معشر الكتاب – في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها" .

إذا تأملنا الرسالة نجد أنها اشتملت علي أفكار مرتبة وألفاظ سهلة ، ومعان واضحة ، وعبارات مكتملة البناء منسابة التعبير ، جميلة رائعة ، وقد اعتمد الكاتب فيها علي التصوير البيانى كما استعمل بعض المحسنات البديعية لإبراز المعنى وتوضيحه ، كما نوّع بين الأسلوب الخبري والإنشائي ليكسب الكلام حيوية وقوة ، ويكون أكثر نفاذا إلى العقول والصدور.

الخصائص الفنية للنثر الأموى

بلغت الخطابة والكتابة منزلة عظيمة في العصر الأموى بسبب الفتن والحروب الكثيرة التى أشعل نارها الشيعة والخوارج ومن خرجوا علي حكمهم وهددوا دولتهم لذلك نال النثر الأدبي الكثير من التطور أكثر مما نال الشعر.

- أما الخطابة فقد زادت دواعيها ، واشتدت الحاجة إليها بسبب الثورات التى قامت ، وبسبب تعدد المذاهب الدينية والأحزاب السياسية وتطاحنها ، وبسبب امتداد الفتوحات الإسلامية حتى وصلت عند جبال البرانس غربا وبالقرب من القسطنطينية شمالا والهند والصين شرقا كل ذلك كان يتطلب من الخلفاء والولاة وقواد الجيوش ، وزعماء الأحزاب أن يخطبوا خطبا بليغة قوية التأثير حتى تحقق غرضها في استمالة المخاطبين .

وقد أكثر الخطباء من الاقتباس من القرآن الكريم وضمنوا خطبهم بعض الحكم والأمثال كما لجأ خطباؤهم من الحكام إلي أساليب التهديد والوعيد لخصومهم ، والتمثيل ببعض أبيات الشعر التي تعزز هذا الغرض ، كما حرص الخطباء علي اختيار الألفاظ ، وترابط الأفكار ، ووضوح المعانى ، وحسن تقسيم الجمل بحيث تعطى العبارات جرسا موسيقيا يتناسب مع موضوع الخطبة .

- وأما الكتابة فقد تطورت عن الكتابة في صدر الإسلام ، وقد نضجت واكتمل نموها في نهاية عصر بنى أمية لاتساع شئون الدولة ، وتعدد الدواوين ، وحاجة الخلفاء إلي مكاتبة الولاة وقادة الجيوش ، وقد كان للكتاب الكبار الذين تولوا

ديوان الرسائل وخاصة عبد الحميد بن يحيى أياد لا تنكر في كل ما حققته الكتابة الفنية من رقى وازدهار في هذا العصر.

وقد كان للكتابة دورها في تسيير دفة الحكم لذلك اهتم الكتاب في كتابتهم الديوانية والدينية ورسائلهم الإخوانية بجمال الصياغة ، وتخير الألفاظ وتجويدها كما اقتبسوا في كتابتهم كثيرا من معانى القرآن وعباراته وصوره ، وأدخلوا في كتابتهم ما استحسنوه من تشبيهات الشعر وحكمه ، وقد ظهر الطابع الإسلامى في الرسائل فقد حرص الكتّاب علي افتتاح رسائلهم بذكر اسم الله وحمده والصلاة والسلام علي نبيه ﷺ .

الباب الرابع

العصر العباسي

الفصل الأول :

الشعـــــر

اعتبر عمود الشعر عند العرب القاعدة الفنية الصحيحة لقول الشعر، وعدوا هذه القاعدة شاملة للمعنى واللفظ والصور الفنية وأسلوب الشعر وبنية القصيدة ، واعتبروا من يخرج علي هذه القاعدة خارجا علي قواعد الشعر العربي وفنيته وطبيعته . كما اعتبروا هذا اخروجا عن عمود الشعر وعن الذوق العربي ، واعتبرت القصائد الجاهلية هي النموذج الذى تحقق فيه عمود الشعر.

وعندما جاء القرن الثاني الهجري خرج الشعراء المجددون علي هذا العمود في بعض نواحيه وبذلك ظهرت فروق واضحة بين شعر المحدثين وشعر الأقدمين ، فروق في منهج القصيدة بالثورة علي البكاء والوقوف علي الأطلال ، وفروق في القواعد الفنية للشعر أيضا ، بل هناك فروق أدخلتها الحضارة الجديدة ، وثقافة العصر ، مما نقل المجتمع الإسلامي نقلة فكرية ضخمة ، ولنأخذ مثالا علي المعاني التي أدخلتها الحضارة الجديدة علي القصيدة في العصر العباسي .

يقول أبو نواس :

يا عاقد القلب مني ... هلاّ تذكرت حلا

تركت مني قليلا ... من القليل أقلا

يكاد لا يتجزا ... أقل في اللفظ من لا

ولم يخرج المحدثون علي المعانى وحدها في عمود الشعر، بل خرجوا خروجا متعمدا مقصورا علي اللفظ ، حتى ينقلوا الشعر من أرستقراطية البلاط إلي

الشوارع حيث تحيا طبقات الشعب ، وبذلك تراجعت الألفاظ الجزلة الضخمة وغلبت الألفاظ السهلة الرقيقة الخائنة التي كان الشعراء يلتقطونها من أفواه العامة في السوق أو في الطريق .

وقد حدث تغير كبير في بناء القصيدة والتحام أجزائها في القرن الثاني الهجري إذ انتهت أو كادت القصائد الطويلة بما تحوى من أغراض كثيرة ، وكان نجاح الشاعر الجاهلي يتوقف علي براعته في الانتقال من غرض إلي غرض دون أن يحس السامع بهذه النقلة ، وبعكس ذلك كانت أشعار المحدثين في معظمها مقطعات قصيرة تحوى كل منها غرضا واحدا ؛ لذلك لم يعد البيت الشعري وحدة منفصلة كما نرى في بعض الشعر القديم ، وبدت القافية قيدا ثقيلا عند الشعراء المحدثين المولدين فقد أحسوا أنها تحرمهم من الانطلاق بخيالاتهم وأفكارهم .

ومع التجديد نشأ ضربان جديدان من الرجز:

الأول : تقفية المصراعين علي قافية واحدة

الثاني : جعل كل خمسة مصاريع في المقطوعة علي قافية واحدة .

وبهذا وجدت المقطوعات ذات البيتين والخمسة ، وأول من استعمل التخميس بشار بن برد ، وقد نُسب لأبى نواس وأبى العتاهية شعر مزدوج .

يقول أبو نواس :

يا راقد الليل احذر من الويلِ

لا تأمن الدهرا إن له غدرا

الـــــدهر ذو صـــــروفِ يرميـــــك بـــــالحيفِ

يـــا نفـــس يـــا نفـــس لقـــد مضـــى أمســـى

لابـــد مـــن بـــينِ بـــين الفـــريقينِ

لا تطـــل النومـــا إن لـــه يومـــا

للـــدهر تقليـــب فيـــه أعاجيـــب

مـــن غالـــه الحـــين لم تـــره العـــين

وقد عارض أبو العتاهية هذه المزدوجة بمزدوجة أخرى.

يقول فيها :

إنـــا لفـــي اغـــترارِ بالليـــل والنهـــارِ

حتـــى متـــى التـــواني ونحـــن في التفـــاني

مـــا أوضـــح الســـبيلا وأســـرع الـــرحيلا

أمـــا تـــرى العيـــون مـــا تصـــنع المنـــونُ

أيـــن الـــذين كـــانوا أفنـــاهم الزمـــانُ

رأيـــت كـــل يـــومِ فيـــه هـــلاك قـــومِ

ويعد وجود قافية مصرعه في داخل البيت وقافية متحدة في جميع الأبيات تجديدا في النظام الموسيقي للقصيدة العربية سواء كانت المقطوعة مزدوجة أم مخمسة أم علي شكل قواف داخلية متحدة غير القافية الموحدة الموجودة في آخر الأبيات. ومثالنا علي ذلك قصيدة لأبي نواس في وصف الخمر.

يقول فيها :

سلاف دن ، كشمس دجن

كدمع جفن ، كخمر عدن

طبيخ شمس ، كلون ورس

ربيب فرس ، حليف سجن

حتى تبدت ، وقد تصدت

لنا وملت ، حلول دن

فاحت بريح ، كريح شيح

يوم صبوح ، وغيم دجن

يسقيك ساق ، على اشتياق

إلى تلاق ، بماء مزن

يدير طرفا ، يعير حتفا

إنا تكفى ، من التثنى

وإذا تطرقنا إلي مضمون القصيدة في القرن الثاني الهجرى نجد أن الاتجاه الذاتي في الشعر العربي دخل مرحلة جديدة بعد أن كانت شخصيته تائهة في أوصافه التي يخلعها علي الأشياء ، وأصبح الشاعر يعبر عن مآسيه الخاصة بعد أن كان يعبر عن المشاكل العامة .

يقول صالح بن عبد القدوس متحدثا عن مشكلة عماه :

عزاؤك أيها العين السكوبُ
ودمعك إنها نوب تنوبُ

وكنت كريمتي ، وسراج وجهي
وكانت لي بك الدنيا تطيبُ

فإن أكُ قد ثكلتك في حياتي
وفارقني بك الإلف الحبيبُ

فكل قرينة لابد يوما
سيشعب إلفها عنها شعوبُ

علي الدنيا السلام فما لشيخ
ضرير العين في الدنيا نصيبُ

يموت المرء وهو بعد حيًّا
ويخلف ظنه الأمل الكذوبُ

يمنيني الطبيب شفاء عيني
وما غير الإله لها طبيبُ

إذا ما مات بعضك فابك بعضا
فإن البعض من بعض قريبُ

وكانت مشكلة الفقر من المشاكل التى عانى منها الشعراء وعبروا عنها . ولعل أبا الشمقمق بدون منازع هو شاعر الفقر، إذ أكثر من تصويره والإبانة عنه في شعره.

يقول ابو الشمقمق في إحدى قصائده الذاتية :-

برزت من المنازل والقباب

فلم يعسر علي أحد حجابي

فمنزلى الفضاء ، وسقف بيتي

سماء الله أو قطع السحاب

فأنت إذا أردت دخلت بيتى

عليّ مسلما من غير باب

لأنى لم أجد مصراع باب

يكون من السحاب إلي التراب

ولا انشقّ الثرى عن عود تخت

أؤمل أن أشاريه ببابى

ولا خفت الإباق علي عبيدى

ولا خفت الهلاك علي دوابي

ولا حاسبت يوما قهرمانى

محاسبة فأغلظ في حسابي

وفي ذا راحـــة وفـــراغ بـــال

فـــدأب الـــدهر ذا أبـــدا ودابـــي

وقد انقسمت الصنعة الفنية في القرن الثاني الهجري إلي نوعين :

الأول : الصناعة اللفظية :

وهى تلك الزخرفة التي أحدثها الشعراء من جناس وطباق ومقابلة وتورية ومراعاة نظير وما إلي ذلك .

الثاني : الصنعة المعنوية :

ونعنى بها الصورة الشعرية التي ترتكز علي التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وغير ذلك من ضروب التصوير، وهذا التقسيم الذى أوردناه تقسيم شكلى لأن النوعين يكمل كل منهما الآخر.

ويرى البعض أن الصنعة اللفظية في شعر القرن الثانى الهجري من آثار اختلاط الفرس بالعرب، وإن كان هذا الأمر قد وجد منذ العصر الجاهلي إلا أن الشعراء المحدثين قد اهتموا بهذه الزخارف اهتماما كبيرا ، وأولوها عنايتهم إرضاء لمدوحيهم ، بالتالي وجدنا شعراء المديح يغوصون في الشعر الجاهلي ، ينتقون منه ذخيرتهم في اللغة والأدب ، ولم يستطع الموهوبون من الشعراء أن يخرجوا من هذه الدائرة الضيقة إلا بشق الأنفس ، فهذا أبو تمام يشبه ممدوحه بالأسد ، ولكنه لم يقنع بهذا التشبيه ، فيضيف علي هذه الصورة صورة أخرى بأن الأسد لو رآه لظنه

من الرعب أسدا ، وممدوحه يفوق الأسد ، لأن الأسد يحمل علي كتفه اللبد بينما المدوح يحمل علي كتفه شدائد الدهر.

يقول ابو تمام :

لـو عـاين الأسـد الضـرغام صـورته

مـــالِيمَ إن ظـــن رعبـــا أنـــه الأســـدُ

شـــتان بينهمـــا في كـــل نائبـــة

نهـــج القضـــاء مـــبين فيهمـــا جـــددُ

هـــذا علـــي كتفيـــه كـــل حادثـــة

تخشـــي وذاك علـــي أكتافـــه اللبـــدُ

والتجديد هنا لم يمس جوهر القصيدة ، بل هو في جملته مبالغة ممقوته أراد بها إرضاء غرور ممدوحة ، ونرى هذا الأمر أيضا عند شاعر كبير وهو البحترى الذى لم يكتف بتشبيه رفعة المدوح بالنجوم بل زعم أن النجوم لو بلغت مجده لضلت مسارها .

يقول البحترى :

وللمهتـدى بـالله مجـد لـو ارتقـت

إليـــه النجـــوم رفعـــة مـــا تهـــدّتِ

وبذلك أصبحت المبالغة هي السمة الغالبة علي شعر هذا العصر لا في المديح وحده بل في المطالع التقليدية لقصائد المديح ، والتي أصبحت لا تمت إلي الشاعر

بسبب قوى ، وأصبحت أشعار الشعراء تفيض بالتشبيهات والمجازات التقليدية والتي تشابه في ترديدها الشعراء .

يقول أبو تمام :

إنــــا غـــدونا واثقـــين بواثـــق

بــالله شمــس ضــحى وبــدر تمــامِ

مــا أحســب البــدر المـنير إذا بــدا

بــدرا بأضــوأ منـــك في الأوهـــامِ

ويقول البحترى :

ورأوك وضــاح الجــبين كمــا يــرى

قمــر الســماء الــتم ســاعة يكمــلُ

اليــوم أطلـــع للخلافـــة ســـعدها

وأضـــاء فيهـــا بـــدرها المتهلـــلُ

وعموما غاية الصورة الشعرية في الأبيات لمست أوجه الشبه البعيد بين الأشياء وأصبح المشبه به مجرد صورة متخيلة ، ونلاحظ هنا أن التخيل الذهنى جنى علي التخيل العربي إذ صرف الشعراء عن الاهتمام بالناحية النفسية ، ونقل انفعالهم بمظاهر الطبيعة والحياة إلي الناحية المادية المحضة وخير مثال علي هذه المقولة قول ابن المعتز في وصف الهلال :

انظـــر إليـــه كـــزورق مـــن فضـــة

قـــد أثقلتـــه حمولـــة مـــن عنـــبر

فهذا الاهتمام بالجانب المادي للأشياء ، وإغفال دلالاتها النفسية واضح كل الوضوح ، فقد قصر اهتمامه بالهلال علي شكله المادي المحض دون أن يهتم بما يثيره مطلع الهلال في النفس من خواطر وأحاسيس وتصور.

وهكذا كان حال الشعر في القرن الثاني الهجري ، شعراء يتجاهلون تجاربهم ويسيرون في الحياة بلا موقف ، ويحاولون التجديد في معان محدودة ضيقة فينتهون إلي صور ذهنية مفتعلة ، ومع ذلك لم يخلُ الشعر العباسي من تجارب صادقة وتعبير شعرى رفيع ، ونزعات إنسانية سامية ونظرات فلسفية عميقة ، فكلما بعدت القصائد عن شعر المديح كانت تعبيرا عن تجارب ذاتية أو أحداث اجتماعية .

ومن القصائد الجياد قصيدة البحترى في رثاء المتوكل ، وهي قصيدة طويلة نقل فيها الشاعر أحاسيسه الحزينة نقلا فنيا مؤثرا ، وإذا تأملنا كل كلمة نجد أنها تحمل شحنة من الألم والحسرة في مدلولها وموسيقا ها ، وكان لاختيار قافية الهاء ما يبين مقدار الفزع والأسى والألم الذى أصاب الشاعر .

يقول البحترى :

محـــل علـــي القـــاطول أخلـــق دائـــرة

وعـــادت صـــروف الـــدهر جيشـــا تغـــاوره

كــأن الصــبا تــوفي نــذورا إذا انــبرت

تراوحـــه أذيالهـــا وتبـــاكره

ورب زمـــان نـــاعم ثـــم عهـــده

تـــرق حواشـــيه ويـــورق ناضـــره

تغـــير حســـن الجعفـــرى وأنســـه

وقـــوض بـــادى الجعفـــري وحاضـــره

تحمـــل عنـــه ســـاكنوه فجـــاءة

فعـــادت ســـواء دوره ومقـــابره

إذا نحـــن زرنـــاه أجـــدّ لنـــا الأســـي

وقـــد كـــان قبـــل اليـــوم يـــبهج زائـــره

ولم أنـــس وحـــش القصـــر إذ ريـــع ســـربه

وإذ ذعـــرت أطـــلاؤه وجـــآذره

وإذ صـــيح فيـــه بالرحيـــل فهتكـــت

علـــي عجـــل أســـتاره وســـتائره

ووحشـــته حتـــى كـــأن لم يقـــم بـــه

أنـــيس ولم تحســـن لعـــين منـــاظره

كـــأن لم تبـــت فيـــه الخلافـــة طلقـــة

بشاشـــتها والملـــك يشـــرق زاهـــره

ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها

وبهجتها والعيش غض مكاسره

فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت

بهيبتها أبوابه ومقاصره

وأين عميد الناس في كل نوبة

تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره ؟

تخفى له مغتاله تحت غره

وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

فما قاتلت عنه المنايا جنوده

ولا دافعت أملاكه وذخائره

حلوم أضلتها الأماني ومدة

تناهت وحتف أوشكته مقادره

ومغتصب للقتل لم يخش رهطه

ولم تحتشم أسبابه وأواصره

صريع تقاضاه السيوف حشاشة

يجود بها والموت حمر أظافره

في هذه القصيدة نقل لنا البحترى حادثة قتل المتوكل نقلا نفسّيا حسيًا أمينا، فوضعنا أمام نص شعري استكمل مقوماته الفنية فهو يصدر عن عاطفة صادقة أشاعت الحرارة والحيوية في الألفاظ والأفكار والصور،

ولننتقل إلي شاعر آخر سخط علي عصره ، وما كان سخطه علي مظهر عارض أو عيب طارئ ، ولكن عذره من هذا السخط أنه إنسان فنان حساس مصقول النفس مثقف العقل ، هذا الشاعر هو ابن الرومى ، وهذا شأنه حتى في عتابه لصديقه . يقول ابن الرومى :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاءِ

أين ما كان بيننا من صفاءِ

أين مصداق شاهد كان يحكى

أنك المخلص الصحيح الإخاء

كشفت منك حاجتى هنوات

غُطيت برهة بحسن اللقاء

تركتنى ولم أكن سيء الظن

أُسى الظنون بالأصدقاء

ويعدد الشاعر هنوات صديقه القاسم بن عبيد الله الشطرنجى ، ويجرى بينهما حوار غريب :[1]

[1] القصيدة كاملة في ديوان ابن الرومى



قلـت لمـا بـدت لعينـي شـنعا

ربّ شـوهاء في حشـا حسـناء

ليتنـي مـا هتكـت عـنكن سـترا

فثـوين تحـت ذاك الغطـاء

قلـن لـولا انكشـافنا مـا تجلـت

عنـك ظلمـاء شـبهة قتمـاء

قلـت أعجـب بكـن مـن كاسـفات

كاشـفات غواشـي الظلمـاء

قـد أفـدتنى مـع الخـبر بالصـا

حـب أن رب كاشـف مستضـاء

والقصيدة تبين عتاب ابن الرومى لصديقه ، وعتابه يدور بين التساؤل الحزين والغضب الثائر واللوم الرقيق ، والقصيدة تبين أيضا حساسية الشاعر ، فيتطير ، ويتشاءم ، ويكبر التوافه ، فهو كثير الأحلام والخيال ، يتصور الخيال والحلم حقيقة ، وهو في هجائه يقف عند نواحي الضعف ويكبرها .

ويقول في بعض هجويه :

وجهـك يـا عمـر فيـه طـول

وفي وجـوه الكـلاب طـولُ

والكلب واف وفيك غدر
ففيك عن قدره سفولُ
وقد يحامى عن المواشي
وما تحامى ولا تصولُ
وأنت من أهل بيت سوء
قصتهم قصة تطولُ
وجوههم للورى عظات
لكن أقفاءهم طبولُ

وعموما كان ابن الرومى يعنى بالتأمل الداخلي فهو ينعكف علي نفسه خاصة بعد موت أبنائه وخاصة ولده الأوسط محمد ، وإذا كان ابن الرومي قد أضاف جديدا إلي القصيدة العربية القديمة لتحليله الدقيق لما يجده في نفسه ، وما يعرضه علي عقله من أفكار وما يصوره له خياله فقد لعبت ثقافته الواسعة دورها في جعل تجربته الشعرية تقوم علي التقصى والبحث والمناقشة والتحليل و يظهر ذلك واضحا فى قصيدة يرثى فيها ابنه محمد يقول فيها :

بكاؤُكُما يشفي وإن كان لا يُجْدي فجُودا فقد أوْدَى نَظيركُمَا عندي
بُنَيَّ الذي أهْدَتْهُ كَفَّايَ للثَّرَى فَيَا عِزَّةَ المُهْدَى ويا حَسْرة المُهدِي
تَوَخَّى حِمَامُ الموتِ أوْسَطَ صبْيَتي فلله كيفَ اخْتار وَاسطَةَ العِقْدِ
طَوَاهُ الرَّدَى عنّي فأضحَى مَزَارُهُ بعيداً على قُرْب قريباً على بُعْدِ

لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدَهـــا وأخلفتِ الآمالُ ما كان من وعــْدِ

لقد قلَّ بين المهْد واللَّحْد لُبثــــهُ فلم ينسَ عهْدَ المهْد إذ ضُمَّ في اللَّحْدِ

وأولادُنا مثلُ الجَوارح أيُّهـــــا فقدْناه كان الفاجِعَ البَيِّنَ الفقــدِ

ولننتقل إلي شاعر آخر أضاف تشكيلا بعيد المدى للتجربة الشعرية في القصيدة العربية القديمة . هذا الشاعر الطموح هو المتنبى ، وكما سبق أن أوضحنا كانت للقصيدة الجاهلية مقدمة طللية كانت صادقة في أول الأمر . لكن مع تطور الشعر العربي أصبحت شيئا تقليديا يضعه الشعراء في بدء قصائدهم ، وأصبحت المقدمة الغزلية هي اللحن المميز للقصيدة في صورتها التقليدية ، وبرغم محاولات الشعراء بالخروج علي المقدمة الغزلية إلا أن هذه المقدمة فرضت سلطانها الفنى علي الشعر العربي فترة طويلة ، والمتنبي من الذين حرصوا علي هذا التقليد الفنى في أكثر قصائده ، ورغم فحولة المتنبي الفنية لم يفكر تفكيرا جديًا في التخلص من هذه المقدمة أو الخروج عليها ، ومع ذلك فقد اتخذ من بعض هذه المقدمات مجالا للتعبير عن نفسه وما يجول فيها من مشاعر وانفعالات ففي كافورياته رسم صورا رائعة صادقة لنفسيته وما يدور فيها من مشاعر وأحاسيس ، فمطالع الكافوريات لم تكن مقدمات تقليدية ولكنها صور واضواء لنفسيته في هذه الفترة فقد فارق سيف الدولة هاربا من كيد الحاشية إلي كافور الإخشيدى ولم يكن يتمنى هذا الفراق فكم ملأه الحزن والحسرة والأسف علي فراق ذلك الأمير الكريم ، وكم سخط علي الحظ العاثر الذى فرق بينهما . ورغم حزنه فهو يملك نفسا تأبى الهوان وترفض الذل ، وتحت تأثير هذه المشاعر والأحاسيس نظم قصيدته الأولي في مدح كافور فيقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى

صديقا فأعيا أوعدوا مداجيا

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى

ولا تتقى حتى تكون ضواريا

حببتك قلبي قبل حبك من نأى

وقد كان غدارا فكن أنت وافيا

وأعلم أن البين يشكيك بعده

فلست فؤادى إن رأيتك شاكيا

فإن دموع العين غدر بربها

إذاكن إثر الغادرين جواريا

وحديث المتنبى هنا عن الحب والمرأة للتمويه والتعمية فما الحبيبة الغادرة التى يشكو بعدها سوى سيف الدولة ومقدمة المتنبي ليست تقليدية لأنها تشعرنا بمدى ألمه لفراق سيف الدولة الذى كان وده له صافيا :

أقل اشتياقا أيها القلب ربما

رأيتك تصفي الود من ليس صافيا

ومع ذلك فنفسية المتنبي الطموح واضحة في كل أشعاره مما يؤجج شاعريته ويغمسها بالحماس الجارف ، ولنتأمل إحدي سيفياته :

ليـالي بعـد الظـاعنين شـكولُ

طـوال وليـل العاشـقين طويـلُ

يُـبِنَّ لـي البـدر الـذى لا أريـده

ويُخفـين بـدرا مـا إليـه سـبيلُ

ومـا عشـت مـن بعـد الأحبـة سلوة

ولكننـى للنائبـات حمـولُ

وإن رحـيلا واحـدا حـال بيننـا

وفي الموت مـن بعـد الرحيـل رحيـلُ

إذا كـان شـم الـروح أدنـى إليكم

فـلا برحتنـى روضـة وقبـولُ

وطموح الشاعر لا يفارقه حتى ساعات ارتوائه بالماء الذى يغص به ، فهو يتذكر أحبابه الذين رحلوا ونزلوا بمكان فيه ماء :

يُحرِّمُـه لمـع الأسـنة فوقـه

فلـيس لظمـآن إليـه وصـول

ألم يـر هـذا الليـل عينيـك رؤيتـى

فتظهـر فيـه رقـة ونحـول

لقيت بدرب القلة الفجر لقية

شفت كمدى والليل فيه قتيل

ويوما كأن الحسن فيه علامة

بعثت بها والشمس منك رسول[1]

ورغم أن الإطار الخارجي للقصيدة هو بكاء من رحلوا عن الديار شأن الشعراء الجاهليين إلا أن هذه المقدمة تظهر ما في نفس المتنبي من طموح، فهو يبحث عن الفخر بأن يكون واليا سواء في الشام أم في مصر، وكما قلنا سابقا فقد استخدم هذه المقدمات للتعمية والتضليل، وهو وإن كان يمدح سيف الدولة في القصيدة فلا ينسى الافتخار بنفسه :

أنا السابق الهادى إلي ما أقوله

إذا القول قبل القائلين مقولُ

وما لكلام الناس فيما يريبني

أصول ولا للقائلين أصولُ

أعادى علي ما يوجب الحب للفتى

وأهدأ والأفكار فيّ تجولُ

سوى وجع الحساد داو فإنه

إذا حل في قلب فليس يحولُ

(١) القصيدة كاملة في ديوان المتبنى

ولا تطمعــن مــن حَاســد في مــودة

وإن كنــت تبــديها لــه وتنيــلُ

وإنــا لنلقــى الحادثــات بــأنفس

كــثير الرزايــا عنــدهن قليــلُ

يهــون علينــا أن تصــاب جســومنا

وتســلم أعــراض لنــا وعقــولُ

وهكذا كان الإطار القديم للقصيدة العربية عند المتنبي مجالا يتحرك منه حركة نفسية نلمح فيها صدق العمل الشعرى وإضفائه لونا من الوحدة الشعورية المعبرة عن طموح صاحبها .

والأمر في شعر أبى العلاء المعرى ليس بعيدا عن شعر كل من ابن الرومى والمتنبي . فإن كان ابن الرومى متأملا خائفا وكان المتنبي طموحا مجازفا فقد كان أبو العلاء زاهدا متقشفا فهو لا ينظر إلي الدنيا بعين الراغب ، بل بما تسوقه إلينا من كروب وآلام .

يقول أبو العلاء :

لا تشــرفن بــدنيا عنــك معرضــة

فمـا التشـرف بالـدنيا هـو الشـرفُ

واصـرف فـؤادك عنهـا مثلمـا انصـرفت

فكلنــا عــن مغانيهــا سننصــرفُ

يـــا أم دفـــر لحـــاك الله والــــدة

فيـك العنـاء وفيـك الهـم والسـرفُ

لـو أنـك العـرس أوقعـت الطـلاق بهـا

لكنــك الأم مــالى عنـك منصـرفُ

وقد هاجم أبو العلاء فكرة الزواج والنسل في شعره كثيرا ، مما جعل التشاؤم يحيط بحياته وأفكاره . لقد كانت الحياة في عصر المعري مضطربة فقد عمّ الفساد وانتشر البلاء ، يضاف إلي ذلك محنته في بصره جعلته يشك في كل الحقائق ، وليس من شك في أن اللزوميات ترينا أبا العلاء حائرا متشائما شاكا ، فهو لم ير من الدنيا ما يقربه منها ، فهو ينظر إليها من خلال منظار الموت الذى يلف الكثير من أبيات شعره ، وتبلغ قمة غربة المعرى في قوله :

غــير مجــد في ملتــي واعتقــادى

نــوح بــاك ولا تــرنم شــادِ

وشـبيه صـوت النعـى إذا قـيس

بصـوت البشـير في كـل نـادِ

أبكـت تلكـم الحمـائم أم غنـت

علـي فـرع غصـنها الميـادِ

إن حزنـا في سـاعة المـوت أضعـا

ف سـرور في سـاعة الميـلادِ

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب

فأين القبور من عهد عادِ ؟

خفف الوطء ما أظن أديم الـ

أرض إلا من هذه الأجسادِ

وقبيح بنا وإن قدم العهد

هوان الآباء والأجدادِ

سر إن استطعت في الهواء رويدا

لا اختيالا علي رُفات العبادِ

رب لحد قد صار لحدا مرارا

ضاحك من تزاحم الأضدادِ

تعب كلها الحياة فما أعجـ

ـب إلا من راغب في ازديادِ

خلق الناس للبقاء فضلت

أمة يحسبونهم للنفادِ

إنما ينقلون من دار أعمال

إلي دار شقوة أو رشادِ

ضجعة الموت رقدة يستريح

الجسم فيها والعيش مثل السهادِ

وهكذا اتخذ أبو العلاء من موت صديقه ميدانا يبث فيه رؤيته الملونة بغربته ، وبالتالي لم تسر القصيدة علي نسق شعر الرثاء ، فهو لا يقف عند تجربة خاصة ضيقة ، ولا يقف عند سرد صفات الميت ، بل ينطلق إلي جو أرحب ويأتى بأحكام عامة تمس أعماق الحياة ، وما يرتبط بها من أسرار.

و عموما لم تتغير أغراض الشعر عن العصر الأموي فاستمر شعر المديح و الفخر والرثاء و الوصف و الغزل و الهجاء

ومن أشهر شعراء الهجاء فى العصر العباسى دعبل الخزاعى ، يقول فى هجاء الخليفة المعتصم:

بَكى لِشَتاتِ الدينِ مُكتَئِبٌ صَبُّ ... وَفاضَ بِفَرطِ الدَمعِ مِن عَينِهِ غَربُ

وَقامَ إِمامٌ لَم يَكُن ذا هِدايَةٍ ... فَلَيسَ لَهُ دينٌ وَلَيسَ لَهُ لُبُّ

وَما كانَتِ الأَنباءُ تَأتي بِمِثلِهِ ... يُمَلَّكُ يَوماً أَو تَدينُ لَهُ العُربُ

وَلَكِن كَما قالَ الَّذينَ تَتابَعوا مِنَ ... السَلَفِ الماضي الَّذي ضَمَّهُ التُربُ

مُلوكُ بَني العَبّاسِ في الكُتبِ سَبعَةٌ ... وَلَم تَأتِنا عَن ثامِنٍ لَهُمُ كُتبُ

كَذَلِكَ أَهلُ الكَهفِ في الكَهفِ سَبعَةٌ ... خِيارٌ إِذا عُدّوا وَثامِنُهُم كَلبُ

وَإِنّي لَأُعلي كَلبَهُم عَنكَ رِفعَةً ... لِأَنَّكَ ذو ذَنبٍ وَلَيسَ لَهُ ذَنبُ

و كما قلنا حاول شعراء العصر العباسى التخلص من مقدمات القصيدة أو إيجازها و هذا ما رأيناه فى قصيدة دعبل فهي تتحدث في موضوع واحد ، فبدأ بمقدمة تشبه المقدمة الطللية اكتفى فيها ببيت واحد يترابط فى وحدة عضوية بباقى الأبيات ، وبرغم أن القصيدة من قصائد الهجاء التى تخلص منها الشعر فى

صدر الإسلام ، وعلى أي حال القصيدة تعطينا الاحساس بدور الشاعر فى علاج مشاكل المجتمع و فى سخطه على الظلم و القصيدة تُصلح لكل زمان و مكان فهي صرخة ضد الاستبداد مهما كان القائم به.

ومن الشعراء الذين برعوا فى المديح فى هذا العصر " العكوك " يقول فى مدح الأمير " ابو دُلَف "

إنّما الدُنيا أبو دُلَـــــفٍ   بَينَ مَغزاهُ وَمُحتَضَرِه

فَإِذا وَلّى أبو دُلَـــــفٍ   وَلَّتِ الدُنيا عَلى أَثَرِه

كُلُّ مَن في الأَرضِ مِن عَرَبٍ   بَينَ باديهِ إِلى حَضَرِه

مُستَعيرٌ مِنكَ مَكرُمَـــــةً   يَكتَسيها يَومَ مُفتَخَرِه

و قال فى *قصيدة اخري فى " ابو دلف "* :

أَنتَ الَّذي تُنزِلُ الأَيّامَ مَنزِلَهـــا   وَتَنقُلُ الدَهرَ مِن حالٍ إِلى حالِ

وَما مَدَدتَ مَدى طَرفٍ إِلى أَحَدٍ   إِلّا قَضَيتَ بِأَرزاقٍ وَآجـــالِ

وقد سارت القصيدة على نمط القصيدة القديمة إلا انها قد تخلصت من المقدمات وتحدثت فى غرض واحد هو مدح أبى دلف وكما نلاحظ أن الشاعر اختار الألفاظ السهلة التى تعبر بوضوح عن فكرته التى امتزجت بأحاسيسه و مما يلفت النظر فى القصيدة قافية الهاء الساكنة التى تدل على قرب المدوح من قلب الشاعر، و رغم ما فى العصر العباسى من مجون و لهو فقد ظهرت مجموعة من الشعراء تدعو إلى الزهد و العودة إلى الدين منهم أبو العتاهية و الإمام الشافعي وغيرهما . *يقول الامام الشافعي* :

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ ... هَذا مَحالٌ في القِياسِ بَديعُ

لَو كانَ حُبُّكَ صادِقاً لَأَطَعتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ

في كُلِّ يَومٍ يَبتَديكَ بِنِعمَةٍ ... مِنهُ وَأَنتَ لِشُكرِ ذاكَ مُضيعُ

و يقول أبو العتاهية :

سُبحانَ مَن يُعطي بِغَيرِ حِسابِ ... مَلِكِ المُلوكِ وَوارِثِ الأَربابِ

وَمُدَبِّرِ الدُنيا وَجاعِلِ لَيلَها ... سَكَناً وَمُنزِلِ غَيثِ كُلِّ سَحابِ

يا نَفسُ لا تَتَعَرَّضي لِعَطِيَّةٍ ... إِلّا عَطِيَّةَ رَبِّكَ الوَهّابِ

يا نَفسُ هَلّا تَعمَلينَ فَإِنَّنا ... في دارِ مُعتَمَلٍ لِدارِ ثَوابِ

وعموما لنا وقفة نتأمل فيها المراحل التى مرت بها القصيدة العربية القديمة بعد الجاهلية . نتبين فيها عناصر التقليد والتجديد التى تحكمت في مفهوم وحدتها وصولا إلي العصر الأندلسي ، وقد سبق أن قلنا إن الركود أصاب القصيدة العربية في مبناها ومعناها ، وإن كان هذا الركود قد زال ونشطت صورة التجديد في بيئات الحجاز والكوفة والشام في شكل القصيدة حيث تغيرت ظروف الحياة الإسلامية بامتلاك الأمويين ناصية الحكم ، ورغبتهم في إبعاد أهل الحجاز عن تيارات السياسة ، فكثرت قصائد الغزل بصورة مفرطة دليل الانهماك في حياة اللهو ، وبذلك تغيرت بنية القصيدة وأصبحت تشتمل علي غرض واحد ، وتنوعت أوزان الشعر القديمة ليلائم جو الغناء والمرح واللهو ، كذلك اتسمت الألفاظ بالرقة والعذوبة وبعدت عن اللون الخطابي ، ورغم ذلك فقد سيطرت القصيدة الجاهلية علي شعراء البصرة وخاصة شعراء النقائض ، مضافا إلي ذلك سيطرة علماء اللغة والنحاة علي

الحياة النقدية ، وهنا كانت الطامة الكبري ، فقد لجأ الكثير من الشعراء إلي التحايل للتخلص من عمود الشعر فأخذوا يبدأون قصائدهم بوصف الخمر كما فعل أبو نواس وتحللوا من البناء الجاهلي إلي مقطوعات ، وحاولوا تجديد القوافي ، وكانت قمة التحايل ظهور البديع علي يد أبى تمام ، وكمحصلة لاتصال العرب بالفرس ظهرت المبالغات في المدح ، ثم جاء البلاغيون وقسموا العمل الفنى إلي لفظ ومعنى ووجهوا كل اهتمامهم إلي السرقات الشعرية دون الاهتمام بوحدة العمل الفنى .

ومن الشعراء من حاول إرضاء النقاد ، فلجأ إلي عمود الشعر في معظم شعرهم كالبحترى ، ومحصلة ما قلناه إن سلطان الشعر القديم جنى علي الشعر العربي إلا في بعض الومضات النفسية الموحدة الخاطفة عند ابن الرومى والمتنبي وأبى العلاء المعرى وأبي نواس وأبي فراس الحمداني .

الفصل الثاني :

النثر في العصر العباسي

تطور النثر في العصر العباسي الأول إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية ، وكل ثقافات الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية وتم هذا التحول عن طريقين :

الأول ، طريق النقل والترجمة .

الثانية ، تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلي العربية بكل ما ورثوه من فنون المعرفة وقد أخذ النثر يتطور تطورا واسعا إذ حمل خلاصة هذه المدنيات .وكان ذلك إيذانا بتعدد شعب النثر وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر الأدبي والنثر التاريخي ، وقد تأثر النثر الأدبي باللغات الأجنبية وخاصة الفارسية ، فقد ترجم ابن المقفع قصص "كليلة ودمنة" كما قام بنقل الكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونظم الحكم والسياسة ، مما كان سببا في وجود الرسائل الميدانية ، وفي نشوء الرسائل الأدبية .

ولم يقف النثر عند الترجمة والتعريب بل امتد إلي وضع العلوم اللغوية والشرعية ، والعلوم الطبيعية والكونية ، وكما أثمرت العقلية في المجال العلمي أثمرت في المجال الفلسفي .

وقد استحدث الكتّاب أسلوبا جديدا يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والبعد عن الألفاظ الغامضة والمعاني المبهمة ، وقد قام أسلوب

الكتّاب علي هجر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية التى تنبو علي ذوق أهل الحضر كما قام بالارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته والملاءمة بين الكلمة والكلمة في الجرس الموسيقي .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين عنوا في هذا العصر بمعرفة الأصول التي تقوم عليها براعة القول وقد نشطت الخطابة السياسية في مطلع هذا العصر إذ اتخذها العباسيون أداة في بيان حق العباسيين في الحكم علي نحو ما يتضح في خطبة أبي عباس السفاح حين بويع بالخلافة في الكوفة . ففيها يتحدث عن رحم العباسيين وقرابتهم من رسول الله ﷺ تاليا من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ، ويطهركم تطهيرا) ، ثم يقول : " زعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة منا ، فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر" .

وفي عهد أبي جعفر المنصور تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن ومن قوله في بعض خطبه : "إن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك ، وعملوا بغير كتابك، وغيروا عهد نبيك ﷺ وأمنوا من أخفت ، وأخافوا من أمنت ، فاحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق علي الأرض منهم أحدا" .

ولم تلبث الخطابة السياسية أن ضعفت . لأنها تزدهر حين تكفل للناس حرياتهم السياسية ـ بسبب تكميم الأفواه وبطش الحكام .

وقد ضعفت الخطابة الحفلية أيضاً واقتصرت علي بعض المناسبات كأن يموت للخليفة بنت أو ابن . أو يموت خليفة ويتولي من بعده خليفة جديد . كقول "ابن عتبة" للمهدى حين هنأه بالخلافة وعزاه في أبيه المنصور: "آجر الله أمير المؤمنين علي أمير المؤمنين قبله . وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده . فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين . ولا عقبي أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين : فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية . واحتسب عنده أعظم الرزية" .

وعلي هذا النحو تضاءلت الخطابة الحفلية كما تضاءلت الخطابة السياسية، ولم يبق إلا الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ . وقد شارك الخلفاء فيها . وقد كان الكثير من الوعاظ يمزجون وعظهم بالقصص الديني . وتفسير بعض أى القرآن .

وقد كانت المناظرات من أهم الفنون النثرية . وكانت تشغل الناس علي اختلاف طبقاتهم . وكانت مجالس البرامكة والمأمون تكتظ بهذه المناظرات . ومن النثر الأدبي أيضاً الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات . وبذلك نشطت الكتابة في ذلك العصر بل صارت الجسر الذى يصل به الشخص إلي أرفع المناصب . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية من أهم المؤثرات في رقي الكتابة الديوانية وتطورها .

ومن الكتاب النابهين في عهود الخلفاء "عمارة بن حمزة" كاتب السفاح والمنصور، ومن كتاب المنصور أيضاً مسعدة بن سعد، ويوسف بن صبيح، وجبل بن يزيد، وغسان بن عبد الحميد، ومن كتاب عصر المهدى أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار، ومحمد بن حجر، ومن كتّاب عصر الرشيد يحيى البرمكى، وجعفر بن يحيى، وإسماعيل بن صبيح، وقمامة بن أبي يزيد، وجعفر بن محمد بن الأشعث، وعمر بن مهران، ومن كتّاب عصر الأمين الفضل بن الربيع، وموسى بن عيسي، ومن الكتاب الذين اشتهروا في عهد المأمون أحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، ومن كتاب عصر المعتصم والواثق محمد بن عبد الملك الزيات.

ومن النثر الأدبي التوقيعات وهي عبارات موجزة بليغة تحمل تظلمات الأفراد، تعود ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا عليها، وقد اشتهر الفضل بن سهل بتوقيعاته البليغة المحكمة، فمن ذلك توقيعه علي قصة مظلوم "كفى بالله للمظلوم ناصرا" وتوقيعه علي كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم:

"الأمور بتمامها، والأعمال بخواتيمها، والصنائع باستدامتها، وإلي الغاية جرْي الجواد، فهناك كشفت الخبرة قناع الشك، فحُمد السابق، وذم الساقط".

ومن النثر الأدبي أيضاً الرسائل الإخوانية والأدبية، ونقصد الرسائل التي تصور عواطف الأفراد، وكانت هذه العواطف تؤدي في العصر الأموى بالشعر ونادرا ما تؤدي بالنثر، ولكن في العصر العباسي زاحم النثر الشعر لمرونته ويسر تعابيره، وقدرته علي تصوير المعاني حتى أننا وجدنا بعض الشعراء كأبي العتاهية يتخذون من النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم، وتدور في كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة

دبّجها كتّاب الدواوين والشعراء ، وممن برعوا في ذلك ابن المقفع ، ومحمد بن زياد الحارثي ، وبذلك لم يترك الكتّاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه ، وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف الطبيعة.

ومن الرسائل الإخوانية رسالة "الحسن بن وهب" مشيدا ببلاغة ابن الزيات :

"أنت حفظك الله - تحتذى من البيان في النظام مثل ما يقصد بحر من الدرر في الأفهام ، والفضل لك - أعزك الله - إذ كنت تأتي به في غاية الاقتدار ، علي غاية الاقتصار ، في منظوم الأشعار ، فتُحل متعقده ، وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصله في حدوده ، وتخرجه في قيوده ، ثم لا تأتي به مهما اقتبسته مشتركا فيُلبس ، ولا متعقدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تضرب بها الأمثال ، يُشرح فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة ، وفرائدك وافدة" .

وقد عرف الكتّاب في هذا العصر الرسائل الأدبية التي يقصد بها التفكيه والترويح عن النفس ، وبذلك نستطيع أن نقول عنها إنها كانت تعبيرا جياشا عن عواطف الكتّاب ومشاعرهم زاحمهم في التعبير عنها الشعراء باتجاههم إلي الكتابة النثرية .

الباب الخامس

العصر الأندلسى

الفصل الأول :

الشعـــــــــر

تطبعت البيئة الأندلسية بالطابع العربي ، ودعم الحكام حكمهم بالشعر ، فقد استخدموا الشعر كدعامة يدعمون بها سلطانهم ، وهم قبل كل شئ عرب الأمزجة يهشون للمديح وينبسطون للثناء والغزل .

وإذا تتبعنا الشعر الأندلسي نجده يسير علي اتجاهين :.

الاتجاه الأول : الاتجاه المحافظ :

وهو اتجاه تناول فيه الشعراء الموضوعات التقليدية ، وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتبه آباؤهم ، وأن قصارى الأديب أن يأتى بما يشبه إنتاج الشعراء الجاهليين ومن تبعهم في العصر الإسلامي والأموى والعباسي .

ولعل هذا الاتجاه نشأ من كون شعراء عصر الولاة كانوا امتدادا للشعر الأموى، فليس له من أندلسيته سوى أنه قيل في الأندلس . وقد كان شعرهم يميل إلي الخشونة ، وبساطة الأفكار والصور ، ومع عصر الولاة اهتم الشعراء بالموضوعات التقليدية . كما ساروا علي منهج القدماء في القصيدة تأثرا بالصور القديمة ، كما استوحوا أسلوبهم من الواقع التراثي .

ومن شعراء هذا الاتجاه المحافظ "ابن زيدون" الذى صور برهافة حس ، وصدق وجدان ، تجربته الأليمة التى فارق فيها أهله ووطنه ،

يقول ابن زيدون :-

هـل تـذكرون غريبـا عـاده شـجنُ

مـن ذكـركم وجفـا أجفانـه الوسـنُ

يخفـي لواعجـه والشـوق يفضـحه

فقـد تسـاوى لديـه السـر والعلـن

يـا ويلتـاه أيبقـي في جوانحـه

فـؤاده وهـو بـالأطلال مـرتهنُ

وأرمـد العـين والظلمـاء عاكفـة

ورقـاء قـد شـفّها إذ شـفّني حـزنُ

فبـت أشـكو وتشـكو فـوق أيكتهـا

وبـات يهفـو ارتياحـا بيننـا الغصـنُ

يـا هـل أجـالس أقوامـا أحـبهم

كنـا وكـانوا علـي عهـد وقـد ظعنـوا ؟

أو تحفظـون عهـودا لا أضـيعها

إن الكـرام بحفـظ العهـد تمـتحنُ

إن كـان عـادكم عيـد فـربّ فتـى

بالشـوق قـد عـاده مـن ذكـركم حـزنُ

وأفردتـــه الليــالي مـــن أحبتـــه

فبــات ينشــدها ممــا جنــى الـــزمنُ

بم التعلـــل ؟ لا أهـــل ولا وطـــن

ولا نـــديم ولا كـــأس ولا ســـكنُ

الاتجاه الثاني :

إتجاه حديث يشبه كثيرا الاتجاه الذى تزعمه أبو نواس في المشرق العربي ، وكان دور "عباس بن ناصح" كبيرا في تطوير الشعر الأندلسي ، فقد أرسل إلي المشرق لجمع الكتب فالتقى في العراق بأبي نواس وسمع شعره فأشاعه بين الأندلسيين الذين أنتجوا شعرا يشبهه ويفوقه في بعض الأحيان ، وبهذا ظهرت أشعار جديدة ، أخذت اتجاها جديدا مع الاتجاه المحافظ ، فظهرت الخمريات **كقول يحيى الغزال** :

ولما رأيت الشرب أكدت سماؤهم

تأبطـت زقـى واحتسـيت عنـائى

فلمـا أتيـت الحـان ناديـت ربّـه

فهـب خفيـف الـروح نحـو نـدائي

قليـل هجـوم العـين إلا تعلـة

علـي وجـل منـى ومـن نظرائـى

فقلـــت أذقنيهـــا فلمـــا أذاقنـــى

طرحـــت عليـــه ربطتـــى وردائـــي

وقلـــت أعرنـــى بذلـــة استتربهـــا

بـــذلت لهـــا فيهـــا طـــلاق نســـائى

فـــوالله مـــا بـــرت يمينـــى ولا وقـــت

لـــه غـــير أنـــى ضـــامن بوفـــائى

وأبـــت إلـــي صـــبحى ولم أك آيبـــا

فكـــل يفـــدّينى وحـــق فـــدائى

ولعل طبيعة الإقليم، وطبيعة أهله وميلهم إلي طلب المتعة والسرور، كل ذلك، جعلهم يستعيضون عن الجانب الذهنى بالعاطفة الرقيقة، والموسيقى الراقصة، مما كان سببا في ظهور الموشحات التي قامت أساسا علي الموسيقي التي تلبي حاجات الغناء، وفيها ما يصح إدراجه في الشعر الجيد لبروز العاطفة الرقيقة فيه، ومن القصائد التى تناولت موضوعا جديدا قصيدة "ابن حمديس" في رثاء صديقته "جوهرة" التى ماتت غرقا،

يقول ابن حمديس :-

يهـــدم دار الحيـــاة بانيهـــا

فـــأى حـــىّ مخلـــد فيهـــا

وإن تـــردت مـــن قبلنـــا أمـــم

فهـــي نفـــوس ردت عواريهـــا

أمـــا تراهـــا كانهـــا أجـــم

أســـودها بيننـــا دواهيهـــا

إن ســـالمت – وهـــي لا تســـالمنا

أيامنـــا حاربـــت لياليهـــا

وأوحشـــتنا مـــن فـــراق مؤنســـة

يميتنـــي ذكرهـــا ويحييهـــا

اذكرهـــا والـــدموع تســـبقني

كـــأنني للأســـى أجاريهـــا

يـــا بحـــر، أرخصـــت غـــير مكـــترث

مـــن كنـــت لا للبيـــاع أغليهـــا

جـــوهرة كـــان خـــاطري صـــدفا

لهـــا أقيهـــا بـــه وأحميهـــا

أبتـــّها في حشـــاك مغرقـــة

وبـــت في ســـاحليك أبكيهـــا

ونفحـــة الطيـــب في ذوائبهـــا

وصـــبغة الكحـــل في مآقيهـــا

عانقهـــا المـــوج ثـــم فارقهـــا

عـــن ضـــمة فـــاض روحهـــا فيهـــا

ويلـــي مـــن المـــاء والـــتراب ومـــن

أحكـــام ضـــدين حكمـــا فيهـــا

أماتهـــــا ذا ، وذاك غيّرهـــــا

كيـــف مـــن العنصـــرين أفـــديها

ومن التجديد في هذه القصيدة أن الشاعر حول المناسبة الخاصة إلي مناسبة إنسانية خالدة ، والقصيدة تتميز بالبساطة اللغوية ، والصور الدقيقة المحكمة ، والمثال الثاني الذي أخذناه لنبين اتجاه التجديد قصيدة "لابن خفاجة" في وصف الجبل يقول فيها :

وحيـــدا تهدهـــدني الفيـــافي فـــاجتلى

وجـــوه المنايـــا في قنـــاع الغياهـــبِ

ولا جـــار إلا مـــن حســـام مصـــمم

ولا دار إلا في قتـــــود الركائـــــبِ

ولا أنســـى إلا أن أضـــاحك ســـاعة

ثغـــور الأمـــاني في وجـــوه المطالـــبِ

بليـــل إذا مـــا قلـــت قـــد بـــاد فانقضـــى

تكشـــف عـــن وعـــد مـــن الظـــن كـــاذبِ



وأرعن طماح الذؤابة باذخ

يطاول أعنان السماء بغارب

يسد مهب الريح من كل وجهة

ويزحم ليلا شهبه بالمناكب

وقور على ظهر الفلاة كأنه

طوال الليالي مطرق في العواقب

يلوث عليه الغيم سود عمائم

لها من وميض البرق حمر نوائب

أصخت إليه وهو أخرس صامت

فحدثني ليل السرى بالعجائب

وقال : ألا كم كنت ملجأ فاتك

وموطن أواه تبتل تائب

وكم مرّ بى من مدلج ومؤوب

وقال بظلي من مطيّ وراكب

ولاطم من نكب الرياح معاطفى

وزاحم من خضر البحار جوانبى

فما خفق أيكى غير رجفة أضلع

ولا نوح ورقى غير صرخة نادب

وما غيّض السلوان دمعي وإنما
نزفت دموعي في فراق الأصاحب

فحتى متى أبقي ويظعن صاحب
أودع منه راحلا غير آيب

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا
فمن طالع أخرى الليالي وغارب

فرحماك يا مولاي دعوة ضارع
يمد إلي نعماك راحة راغب

فأسمعني من وعظه كل عبرة
يترجمها عنه لسان التجارب

فسلّى بما أبكى، وسرّى بما شجا
وكان على ليل السرى خير صاحب

وقلت وقد نكبت عنه لطيفه
سلام فأنا من مقيم وذاهب

ومن الجديد في القصيدة تناول ابن خفاجة الجبل الذى عكس شخصيته الحزينة عليه . وكأن الشاعر قد حل في الطبيعة . وكأنما الطبيعة قد حلت في الشاعر. وقد وظف الشاعر أدواته الفنية بمهارة تمثلت في الاستبطان الذاتي والتشخيص

البليغ الذى دار عليه حديث الجبل ، والقصيدة عموما من عيون الشعر العربي في عمومه .

ومن الموضوعات الجديدة التي لم يطرقها شاعر من قبل قصيدة "لأبي المخشى"[3] يصور فيها تجربته مع العمى يقول فيها :

خضعت أم بناتى للعدا إذ قضى الله بأمر فمضى

ورأت أعمى ضريرا إنما مشيه في الأرض لمس العصا

فبكت وجدا وقالت قولة وهى حرّى بلغت منى المدى

ففؤادى قرح من قولها ما من الأدواء داء كالعمى

وإذا نال العمى ذا بصر كان حيّا مثل ميت قد ثوى

وكأن الناعم المسرور لم يك مسرورا إذا لاقي الردى

أبصرت مستبدلا من طرفة قائدا يسعى به حيث سعى

بالعصـــا إن لم يقـــده قائـــد

وسـؤال النـاس يمشـي إن مشـي

ورغم ذكر بعض المشارقة الأقدمين لعماهم ، فإنهم لم يصوروا محنتهم كما فعل "أبو المحشى" وإنما ما فعلوه هو ذكر إخباري عرضي مقتضب .

ومن الجديد أيضاً المجونيات كقول "المطرف بن عبد الرحمن الأوسط" :

أفنيـت عمـرى في الشـر ب والوجـوه المـلاح

ولم أضـيع أصـيلا ولا اطـلاع صـباح

أحيـى الليـالي سـهدا في نشـوة وقـراح

ولسـت أسمـع مـانا يقـول داعـي الفـلاح

والجديد في القصيدة أسلوب القص والتفصيل والتعبير باللفظة البسيطة الواضحة ، والجملة الرقيقة الجديدة ،

وعموما كان الاتجاه الشعري أحد صور تجديد الشعر ، وقد تجسم هذا الاتجاه في الموشحات ، وإذا تأملنا الموشح أسلوبا ومعنى وصياغة فسنجده يختلف عن الشعر المسمط وغيره من فنون شعراء المشرق ، فهو قد نظم من أجل الغناء والموسيقي ،

وقد ظهر الموشح في الأندلس دون المشرق ، ولم ينجح المشارقة في تقليده ؛ لأن الأندلسيين كانوا أمهر في صياغة هذا اللون من الشعر عن المشارقة ، والشاعر المشرقي الوحيد الذي استطاع أن يأتي بموشحة خالية من التكلف هو "ابن سناء الملك" .

والموشحات ثورة علي نظام القصيدة في الأوزان والقوافي فعلي الرغم أنها نظمت أولا علي البحور القديمة ما لبثت أن تحررت منها في بحور كثيرة تألفها الأذواق وتعشقها الآذان ، ومثال الموشح المتحرر من قافية القصيدة قول الوزير أبي عبد الله لسان الدين الخطيب :

مطلع :

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس

غصن :

إذ يقود الدهر أشتات المنى
تنقل الخطو علي ما ترسم
زمرا بين فرادي وثنى
مثلما يدعوا لوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا
فسنا الأزهار فيه تبسم

قفل :

ورِوى النعمـــان عـــن مـــاء الســـما

كيـــف يـــروى مالـــك عـــن أنـــس

فكســـاه الحســـن ثوبـــا معلمـــا

يزدهـــى منـــه بـــأبهى ملـــبس

ومن الموشحات التي تسمى بالمكفر أو المطهر موشح محيي الدين بن عربي وهو علي نظم موشح "ابن زهر الأشبيلى" :

المطلع :

عنـــدما لاح لعينـــى المتكـــا

نبـــت شـــوقا للـــذى كـــان معـــى

الغصن :

أيهـــا البيـــت العتيـــقِ المشـــرفَ

جـــاءك العبـــد الضـــعيف المســـرفُ

عينـــه بالـــدمع دومـــا تـــذرفُ

القفل :

فريـــة منـــه ومكـــر فالبكـــا

لـــيس محمـــودا إذا لم ينفـــعِ

الغصن :

أيهـــا الســـاقي اســـقنى لا تأتـــلِ

فلقـــد أتعـــب فكـــرى عـــذلى

ولقـــد أنشـــده مـــا قيـــل لى

القفل :

أيهـا السـاقي إليـك المشـتكى

ضـاعت الشـكوى إذا لم تنفـعِ

ومن الموشحات موشح "ابن زهر الأشبيلى" الذى سار علي نمطه الموشح

السابق ، والتى أوقعت بعض الباحثين في الخطأ فنسبوها إلي "ابن المعتز" :

أيهـا السـاقى إليـك المشـتكى

ضـاعت الشـكوى إذا لم تنفـعِ

ومن الموشحات موشح "ابن زهر الأشبيلى" الذى سار علي نمطه الموشح

السابق ، والتى أوقعت بعض الباحثين في الخطأ فنسبوها إلي "ابن المعتز" :

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمعِ

ونـــــديم هِمـــــت في غرّتـــــه

وشـــربت الـــراح مـــن راحتـــه

كلمـــا اســـتيقظ مـــن ســـكرته

جذب الزّقّ إليه واتكى

وسقاني أربعا في أربعِ

غصن بان مال من حيث استوى

بات من يهواه من فرط الجوى

خافق الأحشاء موهون القوى

كلما فكرت في البين بكى

ماله يبكي بما لم يقعِ

ليس لي صبر ولا لي جلدُ

يا لقومي عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواي مما أجدُ

مثل حالي حقه أن يُشتكى

كمد اليأس وذل الطمعِ

ما لعيني عشيت بالنظر

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ما شئت فاسمع خبري

شقيت عيناي من طول البكا

ويكى بعضي علي بعضي معي

كبد حرّى ودمع يَكِف

يعـــــرف الـــــــذنب ولا يعـــــــترفُ

أيهـــــا المعـــــرض عمّـــــا أصـــــفُ

قـــد نمـــا حبـــك عنـــدي وزكـــا

لا يظـــن الحـــبُّ أنـــي مـــدعي

وبذلك نستطيع أن تقول : إن الموشح ربما يبدأ بمطلع يتفق وزنه مع القصيدة ولكنه ذو قافية موحدة ثم يأتي بعده غصنا وهو ذو قافية مختلفة عن قافية المطلع مع اتحاده في الوزن ثم يأتي ما يسمى "قفلا" وهو متحد مع المطلع في قافيته والغصن مع القفل يسمى مجموعهما بيتا والقفل الأخير في القصيدة يسمى "خرجة".

ومثال آخر لموشح وزنه جديد قول عبادة القزاز :

فالوصـــال مـــا قـــد خـــلا مـــــن أمـــــل فايـــــتِ

والخيـــال مـــا قـــد عـــلا مـــــن نفـــس خافـــــتِ

قـــاتلي اهـــدر دمـــا مـــن قـــد غـــدا ملحـــدا

واصـــلي كنـــت فمـــا عمـــا بـــدا قـــد عـــدا

ســـائلي مســـتفهما حـــين الـــردى اعتـــدا

وبذلك نرى للموشحات جانبين :

الأول : جانب موسيقي :

ويتمثل في تنويع الوزن والقافية ، وقد جاء هذا الجانب - كما قلنا من قبل استجابة لحاجة الأندلس الفنية .

الثاني : جانب لغوي :

ويتمثل في أن تكون الموشحة فصيحة في فقراتها ، عامية في خرجتها ، وهذه الازدواجية جاءت من تعريب الأغاني الأعجمية ، ووضع الكلمات للألحان الأعجمية مع التقيد بالأوزان العربية لا سيما ما كان منها مهملا .

وعموما أوزان الموشحات تجديد في أوزان الشعر العربي ، وهي في نشأتها تعد مرحلة من مراحل تطور القافية والأوزان معا ، والحقيقة أن الوشاحين قد أضافوا الكثير من حيث طريقة النظم والصور والأخيلة فارتفعوا بالموشح من درجته الشعبية إلي درجة الأدب الراقي ، وقد عدّ بعض الباحثين الموشحات انطلاقة كبري لتحرير أخيلة الشعراء وأساليبهم ، ولو تطورت الموشحات التطور الصحيح لنشأ عندنا شعر قصصي وآخر تمثيلي ، ولكن هذا الأمر لم يتحقق ؛ لأن الشعراء ربطوا الموشح بمواضيع الغناء من غزل ووصف خمر ، ثم تناوله بعض الشعراء في المدح والهجاء ، فأصاب الموشح ما أصاب القصيدة التقليدية من جمود وفتور ، وجاء نفر من المشارقة فحشدوا في الموشح أنواع المحسنات اللفظية وتلاعبوا بالقوافي والأوزان دون أن يأتوا بجديد .

ورغم الحرية الواسعة التي منحها الوشاحون لأنفسهم لم يدر بخلدهم الثورة علي المعاني ، واكتفوا بالخروج علي الوزن والقافية وعلي اللغة التي خلطوها بالعامية فقد نص شعراؤها علي أن تكون الخرجة عامية .

ومع أن الموشحات قد توفرت علي الأغراض التي تناسب الغناء فإنها لم تعرف الإبداع في الغزل أو وصف مجالس اللهو أو الخمر أو وصف الطبيعة ، ولم تضف جديدا إلي المتوارث العربي في المشرق .

ثم ران علي الشعر العربي عهد من التخلف والجمود حتى سرت إليه نبضات الحياة مع الصحوة العربية في العصر الحديث .

الفصل الثانى :

النثر في العصر الأندلسى

لا توجد نماذج ذات شأن من نثر، وإن كان العصر الأندلسي قد عرف بعض الناثرين الذين كان لهم حظ ولو ضئيل من هذه النماذج ، فالخطابة كانت ضرورية لظروف الحرب والنزاع القبلي ، والمناسبات الدينية والسياسية ، والكتابة كانت ضرورية لظروف الفتح والحكم وتسيير شئون الحكم ، والمناسبات الرسمية كعقد صلح أو توجيه رسالة ومن ذلك عهد عبد العزيز بن موسي بن نصير "لتودمير" أحد حكام القوط ، وقد جاء فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم" ، من عبد العزيز إلى "تودمير" ، أنه نزل علي الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبون أولادهم ونساءهم ، ولا يكرهون علي دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ، وأنه لا يأوى لنا عدوا ، ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبرا يعلمه ...."

ومما حفظ من كتابه تلك الفترة أيضاً جزء من رسالة يوسف الفهرى آخر الولاة إلي عبد الرحمن بن معاوية حين علم بنزوله بالأندلس ، والمرجع أن محرر تلك الرسالة هو خالد بن يزيد كاتب يوسف الفهرى ، وهذا هو الجزء الذى بقى من الرسالة :

"أما بعد ... ، فقد انتهي إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السّراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جلّ وعلا نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف

ورفاهية عيش حتى غمصوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفا ، وجنحوا إلي النقض ، والله من ورائهم محيط فإن كنت تريد المال فأنا أولى بك ممن لجأت إليه في كنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معي إن أردت أو بحيث تريد . ثم لك عهد الله وذمته بي ، ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمي ....."

ومن الكتاب القليلين الذين عملوا في تلك الفترة :

خالد بن يزيد الذى كان كاتبا ليوسف الفهرى أحد ولاة الأندلس ، ومنهم أمية بن يزيد الذي دخل الأندلس مع جنود "بلج بن بشر" واتصل بخالد بن يزيد الذى جعله كاتبا معه .

ونثر تلك الفترة كما نتصور يتناول مسائل الدين وشئون السياسة ، وأمور القبائل في الخطابة ، ويعالج العهود والرسائل والتوقيعات في الكتابة ، أما الخصائص الفنية لهذا النثر فهى خصائص النثر المشرقي الذي كان معروفا في العصر الأموى ، فهو نثر يميل إلي الإيجاز ، ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها .

أقسام النثر في العصر الأندلسي

القسم الأول : النثر الخالص :

اتسع النثر فلم يعد مقصورا علي الرسالة والخطبة والوصية وغير ذلك ، وإنما شمل القصة ، وكان وصوله إليها أشبه بالطفرة ، فقد وثب إلي القصة الأخروية

بمعنى تناوله أحداثا وأبطالا من عالم آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه ، ومن أشهر هذه الأعمال "رسالة التوابع والزوابع" لأبي عامر بن شهيد .

وقد تطور النثر كثيرا في فترة صراع الإمارة ، وكثر الأدباء الناثرون حتى عدّ لكل أمير من أمراء تلك الفترة كاتبان ، فكان من كتّاب الأمير عبد الرحمن الأوسط عبد الكريم بن عبد الواحد وسفيان بن عبد ربه وعيسى بن شهيد ، وكان من كتاب الأمير عبد الله بن محمد ، عبد الله الزجال ، وعبد الله بن أبى عبده ، وموسي بن زياد ، وقد تأثر النثر في تلك الفترة بأسلوب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشرقي الذي لمع في أواخر العصر الأموى ، والذى كان أول من أطال الرسائل وأكثر من التحميدات ، كما تأثر بأسلوب الجاحظ الذي تألق في العصر العباسي ، والذى وصلت كتبه إليهم في حياته ككتاب "التربيع والتدوير" و "البيان و التبيين" كما تتلمذ عليه بعض الأندلسيين حتى امتدت تلمذة بعضهم إلي عشرين سنة ، ومن النماذج النثرية في فترة صراع الإمارة خطب ألقاها الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد دفن والده ، وفي تلك الخطبة وضحت تأثيرات عبد الحميد الكاتب فهي ذات مقدمة مسهبة وتحميد مطنب وفيها يقول : "الحمد لله الذى جعل الموت حتما من قضائه ، وعزما من أمره ، وأجرى الأمور علي مشيئته ، فاستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذل خلقه فما لهم نجاة من العناء ، تبارك اسمه ، وتعالي جدّه ، وصلي الله علي نبيه ورسوله وسلم تسليما . وكان مصابنا بالإمام – رحمه الله – مما جلت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب في

كمال الأجر والذخر. وقد عهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله".

ومن الرسائل التي تأثر صاحبها بأسلوب الجاحظ رسالة الأمير "محمد بن عبد الرحمن الأوسط" إلي "عبد الملك بن أمية" وكان قد أختاره كاتبا له، يقول الأمير في رسالته: "قد فهمنا عنك، ولم نأت ما أتيناه عن جهل بك، لكن اصطناعا لك، وعائده عليك، وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتّاب، فتخير منهم من تثق به، وتعتمد عليه، ونحن نعينك علي أمرك بتفقد كتبنا والإصلاح عليك، إلي أن تركب الطريقة، وتبصر الخدمة، إن شاء الله تعالي".

وفي هذه الرسالة يظهر التأثر بأسلوب الجاحظ ففيها تفنن الكاتب في استخدام حروف الجر، وأوردها في تقابل بارع، وفيها أيضا الجمل القصار المتتابعة في غير تكرار أو إملال.

ومن التوقيعات رد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط علي رسالة الوليد بن عبد الرحمن بن غانم الذى طلب من الأمير أن يقربه منه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة *حيث كتب*:

"إن شاء الله شاكر يحب الشاكرين. وقد ناديت فأسمعت. ولكل أجل كتاب".

ومن المحاورات ما كان بين الأمير عبد الله ومولى من مواليه حيث اعتذر المولي عن خطأ صدر منه، ***فقال له الأمير***:

"إن مخائل الأمور لتدل علي خلاف قولك ، وتنبئ عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك ، وأسدل لستر العفو عليك" .

فقال المولي :

"قد اشتمل الذنب عليّ ، وحاق الخطأ بي ، وإنما أنا بشر ، وما يقوم لي عذر" .

فقال الأمير :

"مهلا عليك . رويدا بك . تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل ، وقد وسعك الغفران" .

إذا تأملنا النماذج وجدناها تختلف عن نماذج الفترة السابقة ، فهنا نرى مراعاة للقيم الجمالية ، ونلمح المحسنات الأسلوبية في التقابل بين الكلمات أو الجمل ، وأيضاً في الازدواج بين الألفاظ والتراكيب وأحيانا في السجع المقبول غير المتكلف ، والتعبير المصقول ، بالإضافة إلي العناية بالمقدمات .

القسم الثاني : النثر التأليفي :

وهو كتابات نثرية تأليفيه ذات قيمة كبيرة من حيث الموضوعات التى تعالجها وأهم هذه الكتابات كتابات ابن شهيد المتصلة بالنقد الأدبي ، وكتابات ابن حزم في فلسفة الحب والتي أودعها كتابه الرائع "طوق الحمامة" .

وقد نهضت الثقافة في عهد عبد الرحمن الداخل وابنه نهضة شاملة ، فقد أتاح الخليفتان كل ما من شأنه أن ينهض بالثقافة فعملا علي تشجيع القادمين إلي الأندلس من علماء الشرق ، كما جلبا الكتب القيمة من شتى الأقاليم ، وكذلك

الحث والتأليف في شتى الفنون ، وليس أدل علي نهضة الأندلس الثقافية في فترة الخلافة من وفرة العلماء والمؤلفات في أغلب فروع المعرفة .

والمتتبع لمؤلفات تلك الفترة سيرى اتجاها واضحا لكل ما هو أندلسى ، ففي التاريخ الأندلسي يكتب ابن القوطية وغيره ، وفي رجال الأندلس يكتب خالد بن سعد ، وفي قضاة قرطبة يكتب الخُشنى ، وفي شعراء الأندلس تُكتب عدة كتب منها عشر أجزاء في شعراء إقليم "إلبيرة" ، كما يكتب ابن فرج كتاب "الحدائق" الذى يعارض فيه كتاب "الزهرة" لمحمد بن داود ، وقد تضمن هذا الكتاب أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجري وللأسف أكثر المؤلفات في تلك الفترة قد ضاع ولم يبق مما فقد إلا مقتبسات في كتب ألفت بعد ذلك .

وأما الفرع الثاني من فروع النثر التأليفي هو فرع التأليف الأدبى ، وقد جمع التأليف الأدبي بين مختارات الشعر والنثر وبين اللغة والرواية وبين البلاغة والنقد وما إلي ذلك من فروع الثقافة العربية الخالصة .

لمحة عن الأدب الأندلسى

تميز الشعر الأندلسي عن الشعر الشرقي بملاحظتين :

الأولي :

أنه سار في أوزانه وقوافيه وأغراضه علي نهج الشعر المشرقي باستثناء الموشحات والزجل وذلك لشعور الأندلسيين بأنهم جزء من العالم العربي ولإيمانهم بأن المشرق مهد اللغة والإسلام والخلافة الأولي وكان من نتيجة ذلك عكوفهم علي الشعر القديم وتأثرهم بشعر المشارقة .

الثانية :

أن مدارس الشعر الأندلسي تأثرت بالشعراء المشارقة كالمتنبي والبحترى وأبي نواس وغيرهم وذلك لأن الشعر الأندلسي ظهر متأخرا زمنيا ، فكل اتجاه جديد في المشرق كان يظهر في الأندلس متأخرا .

وقد اهتم شعراء الأندلس ببعض الأغراض مثل : الوصف ورثاء المدن الزائلة ؛ والاستنجاد بالرسول ﷺ وكبار الصحابة ، ونظم العلوم والفنون كنظمهم في القراءات والنحو ، كما أنهم أهملوا بعض الأغراض مثل : الزهد لرخاء حياتهم والشعر الفلسفي لانصراف الشعراء إلي اللهو والمرح ومجالس الغناء وكان من عوامل أزدهار الشعر تشجيع الخلفاء والأمراء للشعر والشعراء ، ومنافسة الشعراء لمقر الخلافة في بغداد ، وللرقي الحضاري الذي وصلت إليه الأندلس ، ولشيوع الغناء الذي أدي إلي انتشار الشعر ،

وقد تحقق في الشعر الخصائص الفنية التالية :

١- الميل للوضوح والبساطة .

٢- البعد عن التعقيد والغموض .

٣- التلميح إلي الوقائع التاريخية .

٤- الاهتمام بالصناعة اللفظية والزينة الشكلية .

٥- رقة وعذوبة الألفاظ لا سيما في شعر الغزل .

٦- إبداع أوزان وقواف جديدة كما حدث في الموشحات .

مراحل الأدب الأندلسي

(أ) عصر الولاة (٩٣ – ١٣٨هـ) :

أولاً : الشعر :

وهو يعتبر امتدادا للشعر الأموي فليس له من أندلسيته سوى أنه قيل في الأندلس وكان يميل إلي الخشونة وبساطة الأفكار والصور ويناسب طبيعة الناس وظروفهم .

ثانياً : النثر :

وهو أكثر حظا من الشعر فقد ازدهرت الخطابة والكتابة لظروف الحرب والصراع والفتوحات وكان أيضاً امتدادا للنثر الأموي في خصائصه من حيث الإيجاز والبلاغة وعدم التقيد بالمقدمات الطويلة والألقاب المتعددة ، وكانت موضوعاته تدور حول الدين والسياسة وأمور القبائل والعهود والرسائل والتوقيعات.

(ب): عصر الإمارة (١٣٨ – ٢٠٦هـ) :

أولاً : الشعر :

حفل الشعر في هذه الفترة ببعض مظاهر التجديد لظهور أول جيل من الأدباء الأندلسيين ، ولمشاركة الحكام في الأدب ولظهور السمات الأولي للشعر الأندلسي ، وقد ظهر فيه بعض التجديد ،

- وقد اتجه الشعر في هذه الفترة إلي اتجاهين:

١- الاتجاه المحافظ :

وقد اهتم هذا الاتجاه بالموضوعات التقليدية والسير علي نهج القدماء في القصيدة والتأثر بالصور القديمة واستيفاء أسلوب القصيدة من الواقع التراثي .

٢- الاتجاه التجديدي وينقسم إلي قسمين :

الأول : التجديد الموضوعي ، كتصوير أبي المخشيّ لعمى بصره .

الثاني : التجديد الفنـي ، عن طريق وضوح العاطفة واستعمال اللفظ الموحي

ثانياً : النثر :

وقد تمثل في الخطب والرسائل والوصايا والمحاورات وقد تأثر بالنثر المشرقي .

(ع): عصر صراع الإمارة (٢٠٦ — ٣٠٠هـ) :

وقد نهض فيه الأدب نهضة شاملة كان من أسبابها الرقي الاجتماعي والثقافي والصراع العنصري والامتزاج بين القوميات في الأندلس ، وكان من مظاهر النهضة أن الشعر لم يعد مقصورا علي التقليد بل ظهرت اتجاهات حديثة بعضها وافد من الشرق وبعضها نابع من الأندلس كالموشحات وكطرح موضوعات جديدة في شعرهم ورغم عنصر التجديد في النثر إلا أن النثر ظل متأثرا بالنثر المشرقي علي يد عبد الحميد بن يحيى والجاحظ .

(د): عصر الخلافة (٣٠٠ — ٤٢٢ هـ) :

وفيه ازدهرت الحياة الثقافية والأدبية لتأصل الثقافة العربية والاهتمام بالعلم والتعليم ولإنشاء المكتبات الجامعة ولتشجيع الخلفاء للأدباء والعلماء وأرباب الفنون وقد كان من مظاهره ظهور اتجاهات جديدة في الشعر فقد أدت النهضة العلمية إلي استحداث بعض الأفكار الشعرية . كذلك ظهر التأثر للأدب بما يشتمل عليه من تراجم وأخبار ومختارات مما ساعد علي وفرة الإنتاج الأدبي وانتشاره .

(هـ): عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ — ٨٩٧هـ) :

كان لهذا العصر سمات أدبية منها امتلاء قصور الملوك بالعلماء والفقهاء والشعراء ، أيضاً لم تعد قرطبة المركز الثقافي الأكبر في الأندلس ، بل تعدى ذلك الحواضر الأدبية الأخري . كذلك صار التنافس السياسي بين الملوك . وقد أدت حياة الترف إلي تطور بعض الأغراض الشعرية كتطور الغزل علي يد ابن زيدون والوصف علي يد ابن خفاجة . كما نشأت الموشحات علي يد ابن زهر الإشبيلي واستقرت تقاليدها .

(ع): عصر المرابطين والموحدين :

ظهرت فيه مراثي المدن والممالك مثل رثاء ابن سهل لإشبيلية . وبدأ الانهيار الثقافي ، وتراجع الإبداع في الشعر والنثر ومع ذلك ازدهر الشعر الصوفي علي يد محيى الدين بن عربي .

(ط): عصر بني الأحمر بغرناطة :

وفي عصرهم أصبح الشعر حديثا عن ذكريات الماضي ، فقد فقد الشعراء حماسهم وشاعت في أشعارهم الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية .

(ى): القرن التاسع الهجري :

وفيه تدهورت الأحوال السياسية والعسكرية في غرناطة مما أدى إلي سقوطها وكذلك تدهورت حياة الأدب والشعر بل تلاشت بخروج المسلمين من الأندلس وأسدل الستار علي دولة فتية رفعها الإسلام ولم يحافظ عليها المسلمون .

الباب السادس

العصر الحديث

الفصل الأول :

الشعــــــــــر

(أ): مدرسة الإحياء والبعث :

ظهرت طائفة من الشعراء نما وعبها ونفرت من الاتجاه التقليدي في الشعر ورأت هذه الطائفة أن المثل الشعري ليس ما خلفته عصور التخلف في العصرين المملوكى والتركى ، وقد جمعت هذه الطائفة بين شيئين :

الأول : عدم حاجتهم للتكسب بالشعر.

الثاني : هو البعد الكامل عن الثقافة التقليدية والقرب الشديد من الثقافة الحديثة ، بالإضافة إلي تقدم الوعي ، ولم يكن من المستطاع أن يكون المثل الأعلي هو الأدب الأوربي لقلة ما ترجم منه إلي اللغة العربية ولعنصر التوجس من أي وافد أجنبي ، ولذلك وجدت هذه الطائفة نفسها تنهل من الشعر القديم في صورته البيانية الجيدة التي خلفتها عصور الازدهار في المشرق والمغرب ، وكان من هذه الطائفة التي لعبت الدور الكبير في إحياء الشعر وازدهاره محمود سامى البارودى ، وإسماعيل صبري ، وعائشة التيمورية، وقد كان البارودى أقواهم شاعرية وأغزرهم نتاجا ، وأبعدهم عن التقليدية ؛ ولذلك يعده النقاد مؤسس الاتجاه المحافظ البيانى في الشعر الحديث ، والمراد بالبيانية إبراز الجانب البياني في الشعر بشكل واضح ، ويعتبر الأسلوب المحافظ البياني وسيلة تعبير عن حياة الشاعر الخاصة وأحاسيسه الذاتية والتعبير عن قضايا بلده ومشكلاته القومية ؛ لذلك لم يحصر هؤلاء الشعراء أنفسهم في

أغراض الأقدمين ، وإن استمدوا الكثير من صورهم من إبداعات السلف ؛ ولذلك ذكروا الصحراء وما فيها من كثبان وبان وتغنوا بهند وسعاد وأسماء ورباب وبكوا الرسوم والأطلال وشبهوا الحبيبة بالبدر وبالريم وبالظبية .

يقول البارودى :

ألا حيِّ من أسماء رسم منازلِ
وإن هي لم ترجع بيانا لسائلِ

خلاء تعفتها الروامس والتقت
عليها أهاضيب الغيوم الحوافلِ

فلأيا عرفت الدار بعد ترسم
أراني بها ما كان بالأمس شاغلي

غدت وهي مرعى للظباء وطالما
غنت وهي مأوى الحسان العقائلِ

فللعين منها بعد تزيال أهلها
معارف أطلال كوحي الرسائلِ

فأسبلت العينان فيها بواكف
من الدمع يجري بعدسح بوابلِ

ديار التي هاجت عليَّ صبابتي
وأغرت بقلبي لاعجات البلابلِ

ومن السهل علينا أن نتبين الروح الجاهلية في القصيدة ، ولم يتمثل البارودى الشعر الجاهلي فحسب بل تأثر أيضا بما أضافه العباسيون من عناصر حضارية جديدة ، وقد عارض في أول قصيدة من ديوانه قصيدة المتنبي التي مدح بها "أبا علي الأوراجى البغدادى" يقول البارودى في معارضته :

صلة الخيال علي البعاد لقاءُ

لو كان يملك عينى الإغفاءُ

ويقول المتنبي :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء

إذ حيث أنت من الظلام ضياء

والقصيدة تبدأ بنسيب متكلف ثم مدح لأبي علي بينما قصيدة البارودى نسيب وحكمه وشكوى من الزمان وأهله ، وواضح أن البارودى في معارضته قد أدخل بعض التجديد علي القصيدة ، ويعارض أيضا قصيدة البحترى التي مدح بها "أبا عيسي بن صاعد" والقصيدتان ليست علي منهج واحد ، فليس في قصيدة البارودى مديح مثلما في قصيدة البحترى ، ويعارض أيضا قصيدة أبي فراس التي يبدؤها بقوله :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبرُ

أما للهوى نهي عليك ولا أمرُ

فيصنع على نمطها قصيدة يبدؤها بقوله :

طربت وعادتنى المخيلة والسكرُ

وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجرُ

وينفي البارودى بعد فشل الثورة العرابية إلي جزيرة سرنديب ، ويسجل البارودي مشاعره في إطار حزين يلونه بدموعه ويظلله بآلامه يقول :

محا البين ما أبقت عيون المهامنى

فشبت ولم أقض اللبانة من سنى

عناء ويأس واشتياق وغربة

ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبنِ

فإن أك فارقت الديار فلى بها

فؤاد أضلته عيون المها عنى

ويمضى البارودى في تصوير تجربة الوداع بأسلوب يقطر شجنا ، وينزف ألما :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت

مدامعنا فوق الترائب كالمزنِ

أهبت بصبرى أن يعود فعزّنى

وناديت حلمى أن يثوب فلم يغنِ

وما هى إلا خطرة ثم أقلعت

بنا من شطوط الحى أجنحة السفنِ

فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى

وكم مقلة من غزرة الدمع في دجنِ

وما كنت جربت النوى قبل هذه

فلما دهتنى كدت أقضى من الحزنِ

في هذه القصيدة استعار البارودى الأسلوب الجاهلي القديم في حديثه عن الوطن . والشاعر هنا يصور لنا أحاسيسه من خلال الإطار القديم . ومع ذلك نحس أن كل لفظة مشحونة بالمرارة والحزن . بل نشعر بمدى المأساة في تجربته ؛ لذلك يرى العقاد أن البارودى كان أسبق الشعراء المحدثين إلي التجديد .

وجاء بعد البارودى من عمق تجربته كأحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم وأحمد محرم ومحمد عبد المطلب وعلي الغاياتى وغيرهم الذين صاغوا شعرهم علي طريقة البارودى فحافظوا بذلك علي تقاليد القصيدة العربية .

يقول أحمد شوقي :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا

وأفديه بدمعى لو أثابا

نثرت الدمع في الدمن البوالى

كنظمى في كواعبها الشبابا

وقفت بها كما شاءت وشاءوا

وقوفا علم الصبر الذهابا

في القصيدة نرى شوقي يصف الأطلال ويتحدث عن الرسوم والديار مثلما فعل القدماء .

وقد يتجه الشاعر المحافظ إلي مخاطبة الصاحبين مثلما فعل امرؤ القيس حين قال "قفانبك" فهذا حافظ إبراهيم يهنئ الإمام محمد عبده لعودته من الجزائر:

بكـــرا صـــاحبى قبـــل الإيـــاب

وقفـــا بـــى بعـــين شمـــس فبـــابى .

ويترك الشاعر المحافظ الحديث عن وصف الناقة في بدء قصائده ويستعيض عنها بما يناسب العصر الذي يعيش فيه ؛ لذا وجدنا شوقي يستعيض عن وصف الناقة بالسفينة التي سترجعه إلي وطنه فيقول[1]:

هَمَّتِ الفُلكُ وَاحتَواها الماءُ — وَحَداها بِمَن تُقِلُّ الرَجاءُ

ضَرَبَ البَحرُ ذو العُبابِ حَوالَيـــ — ـــها سَماءً قَد أَكبَرَتها السَماءُ

لُجَّةٌ عِندَ لُجَّةٍ عِندَ أُخرى — كَهِضابٍ ماجَت بِها البَيداءُ

وَسَفينٌ طَوراً تَلوحُ وَحيناً — يَتَوَلّى أَشباحَهُنَّ الخَفاءُ

نازِلاتٌ في سَيرِها صاعِداتٌ — كَالهَوادي يَهُزُّهُنَّ الحُداءُ

رَبِّ إِن شِئتَ فَالفَضاءُ مَضيقٌ — وَإِذا شِئتَ فَالمَضيقُ فَضاءُ

فَاِجعَلِ البَحرَ عِصمَةً وَاِبعَثِ الرَحـــ — ـــمَةَ فيها الرِياحُ وَالأَنواءُ

أَنتَ أُنسٌ لَنا إِذا بَعُدَ الإِنـــ — ـــسُ وَأَنتَ الحَياةُ وَالإِحياءُ

يا زَمانَ البِحارِ لَولاكَ لَم تُفـ — ـجَع بِنُعمى زَمانِها الوَجناءُ

---

(١) الشوقيات جـ١ : ص١

أينَ كانَ القَضاءُ وَالعَدلُ وَالحِكـ مَةُ وَالرَأيُ وَالنُهى وَالذَكاءُ

وَبَنو الشَمسِ مِن أَعِزَّةِ مِصرٍ وَالعُلومُ الَّتي بِها يُستَضاءُ

لَبِثَت مِصرُ في الظَلامِ إِلى أَن قيلَ ماتَ الصَباحُ وَالأَضواءُ

ويقول أيضا في قصيدة أخرى تعد من عيون الشعر العربي:

اِختِلافُ النَهارِ وَاللَيلِ يُنسي أُذكُرا لِيَ الصِبا وَأَيّامَ أُنسي

وَصِفا لي مُلاوَةً مِن شَبابٍ صُوِّرَت مِن تَصَوُّراتٍ وَمَسِّ

عَصَفَت كَالصَبا اللَعوبِ وَمَرَّت سِنَةً حُلوَةً وَلَذَّةُ خَلسِ

وَسَلا مِصرَ هَل سَلا القَلبُ عَنها أَو أَسا جُرحَهُ الزَمانُ المُؤَسّي

كُلَّما مَرَّتِ اللَيالي عَلَيهِ رَقَّ وَالعَهدُ في اللَيالي تُقَسّي

مُستَطارٌ إِذا البَواخِرُ رَنَّت أَوَّلَ اللَيلِ أَو عَوَت بَعدَ جَرسِ

راهِبٌ في الضُلوعِ لِلسُفنِ فَطنُ كُلَّما ثُرنَ شاعَهُنَّ بِنَقسِ

يا اِبنَةَ اليَمِّ ما أَبوكِ بَخيلٌ ما لَهُ مولَعاً بِمَنعٍ وَحَبسِ

أَحَرامٌ عَلى بَلابِلِهِ الدَو حُ حَلالٌ لِلطَيرِ مِن كُلِّ جِنسِ

كُلُّ دارٍ أَحَقُّ بِالأَهلِ إِلّا في خَبيثٍ مِنَ المَذاهِبِ رِجسِ

وَطَني لَو شُغِلتُ بِالخُلدِ عَنهُ نازَعَتني إِلَيهِ في الخُلدِ نَفسي

وَهَفا بِالفُؤادِ في سَلسَبيلٍ ظَمَأٌ لِلسَوادِ مِن عَينِ شَمسِ

شَهِدَ اللَهُ لَم يَغِب عَن جُفوني شَخصُهُ ساعَةً وَلَم يَخلُ حِسّي

ويظل الشاعر المحافظ محافظا؛ لأنه لم يغير المنهج من حيث وصف الرحلة والتمهيد بذكر ما يركب ثم الدخول في الموضوع الأساسي، وقد اعتمد هؤلاء الشعراء

إلي مخزون ثقافي متنوع ، وإلي جانب هذا المخزون العقلانية التي تحكم هذا التيار ، كما كثر شعر المناسبات والمواقف المحفلية حتى أصبح شعر المناسبات والمجاملات يطغى علي فنية الشعر ، وقد جرت ظاهرة المناسبات إلي ظاهرة فنية أخري وهي التأثير في أسلوب الشعر بما يلائم الجماهير مما جعل الشعر أحيانا قريبا من النثر ، كذلك كثر عند الشعراء الأسلوب الخطابي وما يستلزمه من صيغ النداء وأفعال الطلب وما إلي ذلك ، وقد اهتم أصحاب هذا الاتجاة بالجانب البياني في القصيدة ، فاهتموا باللفظ والشكل ، ولم يهتموا بالمعني ، وبالتالي تحول الشعر إلي صياغات جميلة وأساليب آسرة وموسيقي جهرية وفي ذلك يقول العقاد في حديثه عن شوقي:

"في أحمد شوقي ارتفع شعر الصنعة إلي ذروته العليا وهبط شعر الشخصية إلي حيث لا تبين لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التي يتميز بها إنسان عن سائر الناس" ، وحديث العقاد لا يخص شوقي وحده ، وإنما ينسحب علي كل شعراء هذا الاتجاه كحافظ ومحرم والغاياتى والكاشف ونسيم وعبد المطلب والرصافى والزهاوى والجواهرى ، حتى أصبح من أيسر الأمور علي النقاد رد القصيدة إلي أصلها القديم الذي أخذت منه ، وبالتالي كان الاهتمام بتجديد الصياغة بعيدا عن العناية بالأفكار الدقيقة والتجارب النفسية العميقة ، مما أفقد القصيدة وحدتها العضوية حيث جاءت معظم قصائد الشعراء مشتملة علي أكثر من غرض ، ثم جاء الغرض الواحد غير مترابط المعاني ، ورغم دور هذا الاتجاه في القضاء الكامل علي بقايا الاتجاه التقليدي المتخلف ، والإسهام في النضال أصبحت الحاجة ماسة لمرحلة جديدة غير مرحلة البعث التي قادها البارودي .

(ب) خليل مطران وريادته للشعر الحديث :-

لقب خليل مطران بشاعر القطرين لبنان ومصر، لم يعتمد في شعره علي النماذج العربية وحدها، بل قرنها بما قرأ من نماذج أجنبية، والواقع أن شعر مطران احتفي بالصياغة الشعرية، بل اعتبرها جزءا من الخلق الشعري، وفي ذلك فإن رومانسية مطران تطالعنا خلال القصص العديدة التي اتخذها موضوعا لشعره مثل : "فنجان قهوة" التي تقص غراما جارفا بين أميرة ورئيس حرس أبيها، وقصيدة "الجنين الشهيد" التي تعد واحدة من روائع الشعر العربي الحديث وفيها يقص حكاية فتاة أتت القاهرة وهي معدمة لتعول أبويها العجوزين فتعمل في الحانات حتى يسقطها حظها التعس في يد شاب شرير لفظها بعد حملها.

والمتأمل لقصيدة "المساء" لمطران يتبين فيها حرفية الشاعر في بناء عمله، بل يجد فيها روحانيات قلما نجدها في الرومانسية الغربية، يقول مطران :

إنى أقمت علي التعلة بالمنى
في غربة قالوا : تكون دوائي
إن يشف هذا الجسم طيب هوائها
أيلطف النيران طيب هواءٍ ؟
عبث طوافي في البلاد وعلة
في علة منفاى لاستشفاءِ

متفـــرد بصـــبابتي ، متفـــرد

بكـــآبتي ، متفـــرد بعنـــائي

شاك إلي البحر اضطراب خواطري

فيجيبنـــي برياحـــه الهوجـــاءِ

ثـاوٍ علـي صـخر أصـم وليـت لـي

قلبـا كهـذي الصـخرة الصـماءِ

ينتابهـا مـوج كمـوج مكـارهي

ويفتهـا كالسـقم في أعضـائي

والبحـر خفـاق الجوانـب ضـائق

كمـدا كصـدري سـاعة الإمسـاءِ

تغشـى البريـة كـدرة وكأنهـا

صـعدت إلـي عينـي مـن أحشـائي

والأفـق معتكـر قـريح جفنـه

يغضـي علـي الغمـرات والأقـذاءِ

يـا للغـروب ومابـه مـن عـبرة

للمسـتهام وعـبرة للرائـي

أو لـيس نزعـا للنهـار وصـرعة

للشـمس بـين مـآتم الأضـواءِ ؟

أو لـيس طمسـا للـيقين ومبعثـا

للشـك بـين غلائـل الظلمـاء ؟

أو لـيس محـوا للوجـود إلـي مـدى

وإبـادة لمعـالم الأشـياء ؟

حتـى يكـون النـور تجديـدا لهـا

ويكـون شـبه البعـث عـود ذكـاءِ

ثم يقول :

ولقـد ذكرتـك والنهـار مـودع

والقلـب بـين مهايـة ورجـاءِ

وخـواطرى تبـدو تجـاه نـواظرى

كلمـى كداميـة السـحاب إزائـى

والـدمع مـن جفنـى يسيل مشعشعا

بسـنا الشـعاع الغـارب المترائـى

والشـمس في شـفق يسـيل نضـاره

فـوق العقيـق علـي ذرى سـوداء

مـرت خـلال غمـامتين تحـدرا

وتقطـرت كالدمعـة الحمـراءِ

فكــأن آخــر دمعــة للكــون قــد

مزجــت بــآخر أدمعــى لرثــائى

وكــأننى آنســت يــومى زائــلا

فرأيــت في المــرآة كيــف مســائى

ورغم ما في القصيدة من آلام وأحزان فخيال الشاعر حيّ يدرك الطبيعة الخارجية ويمزجها بنفسه حتى ليري نفسه في مرآة هذه الطبيعة . فهو يجمع في القصيدة الواحدة بين اللوحات الفنية المليئة بالحركة ، والمتدفقة بالحياة .

ولو تناولنا قصائد مطران جميعها فسنجدها مرتبطة الأجزاء ، بمعنى تحقق الوحدة العضوية في شعره ، وكذلك موضوع القصيدة سنجده مخيما علي القصيدة من أولها إلي آخرها ، واللفت للنظر أن مطران لم يتقيد بالقافية الواحدة في شعره ، وإنما نظم أوزانا عدة ، وله محاولات في الشعر المنثور.

يقول في رثاء المرحوم إبراهيم اليازجي :-

أطلق عبراتك من حكم الوزن وقيد القافية .

وصعّد زفراتك غير مقطعة عروضا ولا محبوسة في نظام

قل وقد نظرت إلي الموت وهو قاتل عامد

ما توحيه إليك النفس لدى رؤية إثمه الرائع

لا عتب علي الحمام ،وهو الظلمة والحياة والنور

هو الأصل الأزلي الأبدى والنور حادث زائل

فإذا أزهر شارق في دجنه فهو يكافحها وينافيها

إلي أن يقضي سببه فيتضاءل ثم يتلاشي فيها .

***

المائت وراء الميت ، أتبكى ميتا وأنت مائت ؟

هل القطرات الهابطة في العمق دمعة تجرى إثر دمعة ؟

لئن مات اليازجى ، فقدمات من قبله النبيون

وماتت أمم أهان الردى أعزاءها وصغر كبراءها

فلم تبكون راحلا أيها الراحلون ؟ أأنتم بعده في خلود ؟

أم هي دموع يقرضها السلف ، ليفيهم إياها الخلف ؟

لا .. وإنما نبكى منا بعضنا الذى ذهب مع الذاهب

نبكى مغانمنا من أنسه وعلمه وأخلاقه

نبكى مفقودنا من معاهده في المكان والزمان

نبكى ما ألفناه من مشهوده ومسموعه

***

فيا من يكبر جزعا علي إبراهيم !! إن الميت يبكى بمقداره

وإن النفس بما فطرت عليه من الكلف بمصالحها

لا تأسف علي الشمس المتوارية بالحجاب

أسفها علي أي نجم يتواري ، ولو كان في فلكه شمسا

***

أكان اليازجي من أرواحنا بمنزلة الشمس من العيون ؟

فيكون حدادنا عليه حداد الليل علي النهار ؟

نعم !! كان بعلمه كالشمس إنارة وإشراقا

ولكنه كان كالروضة بأفانين آدابه ومعارفه

سوى أنه كان كالزهرة بوداعته ، وعرفه ، ونفع ما يعصر قلمه ولم تكن أشعته جارحة للعيون بقحتها ، وإنما كانت بلسما للعيون ولم تكن ثماره وأشجاره تنسيق تجارة ولا زينة مفاخرة ولم يكن عرفه دعوة للإعجاب به ، بل نسمة روح متذكية .

***

شيخ نحيل ضم قلبا رقيقا وعقلا كبيرا

فقدناه ، ففقدنا لغة في يراع

فقدنا زهرة ذابلة تنذر بذبول الحديقة

فقدنا حديقة متجردة تنبئ بزوال الربيع

فقدنا ربيعا انقضى بعد عصر في عمر رجل

فقدنا شمسا أطلعت ذلك الربيع وزانته بأنوارها وأندائها

ثم غربت عنه بلا تدرج في الانتقال ومالت إلي الشتاء .

وهكذا لم يكن مطران عبدا لنظام القصيدة العربية فقد عالج الكثير من الأغراض بأوزان عدة وقافية متغيرة ومع ذلك لم يسرف في الاتجاه التجديدي الذهني كما فعلت جماعة الديوان بسبب النقاد التقليديين من أمثال الشيخ حسين

الرصفى الذي أضر بالحركة النقدية الحديثة ، ومع ذلك فإننا نعد مطران مرحلة انتقالية ما بين مدرسة المحافظين والمدرسة الحديثة .

ع) جماعة الديوان :-

تمثلت جماعة الديوان في العقاد والمازني وعبد الرحمن شكري ، والثلاثة يمثلون وجهة نظر واحدة في مفهوم الشعر تأثرا بالرومانسية الإنجليزية ، ومن المعروف أنهم كانوا متمكنين من الثقافة الإنجليزية حصلها شكرى والمازني عن طريق الدراسة في مدرسة المعلمين العليا ثم توسعا فيها عن طريق قراءتهما الخاصة، وتمكن منها العقاد بمجهوده الخاص ، وقد تبلور مذهب هذه الجماعة في دواوين شكرى والمازني وفي كتاباتهم التي تؤيد مذهبهم ، وكذلك نقدهم للمذهب المحافظ ، ومن تلك الكتابات المقالات النقدية التي كتبها المازني في صحيفة عكاظ سنة ١٩١٣م ناقدا حافظ إبراهيم ، ومقارنا بينه وبين عبد الرحمن شكرى ، ومن تلك المقالات النقدية المتقدمة . كتابات العقاد في صحيفة عكاظ سنة ١٩١٤م بعنوان "الشعراء الندابون" وبالتالي بعدت هذه الجماعة عن شعر المناسبات والشعر السياسي . والشعر الاجتماعي ، وكان جلّ همهم الاهتمام بالعالم النفسي للشاعر ، وما يتصل به من تأملات فكرية ، ونظرات فلسفية تهتم بالكون وتفتش عن أسراره ، فنجد عبد الرحمن شكري يتحدث عن فكرة البعث ، فيقول من قصيدته "حلم البعث"[1]:

---

(١) ديوان شكرى صـ ٢٤١

رأيت في النوم أني رهن مظلمة
من المقابر ميتا حوله رممُ
ناء عن الناس لا صوت فيزعجني
ولا طموح ولا حلم ولا كلمُ
مطهر من عيوب العيش قاطبة
فليس يطرقني همّ ولا ألمُ
ولست أشقى لأمر لست أعرفه
ولست أسعى لعيش شأنه العدمُ
فلا بكاء ولا ضحك ولا أمل
ولا ضمير ولا يأس ولا ندمُ
والموت أطهر من خبث الحياة وإن
راعت مظاهره الأحداث والظلمُ
مازلت في اللحد ميتا ليس يلحقني
نبح العدو وبي عن نبحه صممُ

ويتحدث المازني عن قضية "الجبر" فيقول من قصيدة له بعنوان "علي لسان الأقدار" :[1]

بأيدينا قلوبكم لنا فيها ألا عيبُ

(١) ديوان المازني صـ١٥٧

وفينـا الخـير موجـود   ومنـا الشـر مجلـوبُ

ولا عن صروفنا معدى   ولا في الأرض محجـوبُ

نصرف أمر دنياكم   بما فيها الأعاجيبُ

وقد وجهت بعض التجارب الشعرية في الأدب الإنجليزي العقاد إلي ضرب من التجارب ، يتمثل في شعر الكروان بصفة خاصة والطيور بصفة عامة وهو ديوان "هدية الكروان" .

يقول العقاد :

ألـف صـدى لهـاتف   متفـرد علـي الـذرى

أم ألـف شـاد رددت   هتافهـا مكـررا

أم ذاك روح أطلقوه في الدنى مخيرا

فرادهـا مسـتغربا   وطافهـا مستبشـرا

فـلا يقـال مقبـل   حتـى يقـال أدبـرا

ويعد العقاد رائد الاتجاة التجديدى الذهنى ؛ لوفرة إنتاجه واستمراره وتنوعه، ولم ينته هذا الاتجاه بالخلافات التي كانت بين رواده ، فقد خلف العقاد تلامذة يعتبرون امتدادا لهذا الاتجاه من أمثال عبد الرحمن صدقي ، ومحمود عمار ، وطاهر الجبلاوى ، ويلاحظ علي أنصار هذا الاتجاه أنهم غلبوا الجانب الفكرى علي الجانب البياني والعاطفي .

وقد وضح العقاد في "الديوان" رأيه في مدرسة المحافظين ، وقد أخذ علي مدرسة المحافظين مأخذين :

الأول : عدم تحقق الصدق الفني وبالتالي لم تتضح شخصية الشاعر في عمله الشعري.

الثاني : انعدام الوحدة العضوية في أشعارهم .

ومع ذلك حينما ننظر إلي مدرسة الديوان لن نرى التطابق الكامل بين المذهب النظري وبين النماذج التطبيقية ، فقد رأينا العقاد مثلا وهو أقواهم شكيمة، وأشدهم تحمسا لم يخل شعره من عيب الترتيب في الأبيات الذي حاول أن يهدم به شوقي ، يقول العقاد في قصيدة "نبئيني" :

يا رجائي ويا سلوتي وعزائي
وأليفي إذا اجتواني الأليفُ

نبئيني فلست أعلم ماذا
منك قلبي بحسنه مشغوف

كل حسن أراك أكبر منه
إن معناه تالد وطريف

لست أهواك للجمال وإن
كان جميلا ذاك المحيا العفيف

لست أهواك للذكاء وإن
كان ذكاء يذكي النهى ويشوف

لســـت أهـــواك للـــدلال وإن

كــان ظريفــا يصـبو إليــه الظريــف

لســت أهــواك للرشــاقة والرقــة

والأنـــس وهـــو شـــتى صـــنوف

أنـــا أهـــواك أنـــت أنـــت

فـلا شئ سـوى أنـت بـالفؤاد يطيـف

إن حبـا يـا قلـب لـيس بمنسيك

جمـــال الجميـــل حبـــا ضـــعيف

ومـع أن القصـيدة متتابعـة في سياقها ، ومعانيهـا ، ومترابطـة ، ومحكمـة ، إلا أننا نستطيع أن نؤخر بعض الأبيات ونقدم أخرى دون أن يخل ذلك بالمعني وهذا ما عابه العقاد علي مدرسة الإحياء والبعث .

أيضاً اختلط فهم العقاد للوحدة العضوية بوحدة الموضوع وهو عيب وقـع فيه ، كذلك شارك العقـاد بشعر في بعض المناسبات السياسية مثل قصيدة "بنى مصر" وفي الرثاء كالقصيدة التي رثي بها "مى زيادة" .

ومـع ذلـك فقـد أثـر أصـحاب الاتجـاة الجديـد تـأثيرا كـبيرا في حركـة الشـعر الحديث ، بل وخلقوا تيارا قويا إلي جانـب التيار المحـافظ ، وكـان كتـاب "الديوان" دستور جماعة التجديد بين الذهنيين ، وكان الهدف منه الهجوم العنيف علي مدرسة

الإحياء والبعث وكذلك الدعوة إلي أدب جديد ، وقد سميت هذه الجماعة بجماعة الديوان علي اسم كتابهم النقدي .

(د) مدرسة المهاجر :

كان دستور مدرسة المهاجر كتاب "الغربال" لميخائيل نعيمة ، والكتاب يهاجم مدرسة الأدب التقليدي ويدعو إلي أدب جديد ، وقد ظهر كتاب "الغربال" عام ١٩٢٣ بعد كتاب "الديوان" بعامين ، وكان كلا منهما يدعو إلي شعر الوجدان الذاتي .

وليس معنى ذلك أن يكون العمل الأدبي مجموعة من العواطف المشوشة؛ لأن القلب في الفن يبتدع ، والفكر يصقل العمل الفنى ، والنظرة المتأنية إلي أشعار شعراء المهاجر تكشف لنا تلك النزعة الذاتية الإنسانية .

يقول رشيد أيوب في قصيدة "الآمال الضائعة" :

جلست بقرب شباكى   أردد طيب ذاكرك

وأطوى بيدَ أحلام   كبت فيها مطاياك

وفيها النفس حائمة   ترفرف فوق مغناك

تفجر في الدجى برق   تلاه مدمعى الباكي

أتاركتى أخا سهر   متى عهدى بلقياك

إذا خطرت علي بالي   أونقاتى وإياك

ورحت أعاتب الدنيا   جلست بقرب شباكى

والنص السابق يبين شدة حنين الشاعر إلي وطنه والشاعر تستبد به الرغبة في الهرب والانسحاب إلي داخل النفس .

وعلي نفس الوتيرة يعبر لنا الشاعر جبران خليل جبران عن لهفته العارمة إلي المجهول في *قصيدته "البلاد المحجوبة"* :-

هـوذا الفجـر فقـومى ننصـرف

عـن ديـار مـا لنـا فيهـا صـديق

مـا عسـى يرجـو نبـات يختلـف

زهـره عـن كـل ورد وشـقيق

وجديـد القلـب أنـى يـأتلف

مـع قلـوب كـل مـا فيهـا عتيـق

هـوذا الصـبح ينـادى فـاسمعى

وهلمـى نقتفـى خطواتـه

قـد كفانـا مـن مسـاء يـدعى

أن نـور الصـبح مـن آياتـه

ثم يتشكك الشاعر في حقيقة هذا المرفأ النفسي فيقول :

يـا بـلاد احجبـت منـذ الأزل

كيـف نرجـوك ومـن أيـن السبيل ؟

أي قفـــر دونهــــا أي جبـــل

سورها العـالي ومـن منـا الـدليل ؟

أســـراب أنـــت أم أنـــت الأمـــل

في نفـــوس تتمنـــى المســتحيل ؟

أمنـــام يتهـــادى في القلــــوب

فــإذا مــا اسـتيقظت ولـــي المنـام

أم غيـوم طفــن في شمــس الغــروب

قبــل أن يغـــرقن في بحـــر الظــلام

ويظل الشاعر متحرفا إلي مرفأ مجهول ليس من سبيل للوصول إليه :

يــا بــلاد الفكــر يـــا مهـــد الأُلى

عبـــدوا الحــق وصـلوا للجمـــال

مــــا طلبنـــاك بمجـــد أو علـــى

مـــن ســـفن أو بخيـــل ورحـــال

لســـت في الشـــرق ولا القـــرب ولا

في جنــوب الأرض أو نحـــو الشـمال

لسـت في الجـــو ولا تحـــت البحـــار

لســت في الســهل ولا الــوعر الحـــرج

أنـــت في الأرواح أنـــوار ونـــار

أنـــت في صـــدري فـــؤاد يخـــتلج

وجبران في شعره يؤكد أن الإنسان محور الكون كله ، فإذا ما أراد أن يعرف شيئا في الحياة ، فما عليه إلا أن يحدق في أعماق وجوده الإنساني .

وقد ظل طابع الإحساس بالإنسانية في شعر المهاجر كله ، فهو أدب صادر عن وجدان مشحون بالعاطفة وقصيدة "أخي" لميخائيل نعيمه يعدها الدكتور محمد مندور من أروع شعر الوجدان الجماعي في أدبنا العربي ، *يقول فيها* :

أخـــي إن ضـــج بعـــد الحـــرب غربـــيّ بأعمالـــه

وقـــدس ذكـــر مـــن مـــاتوا وعظـــم بطـــش أبطالـــه

فـــلا تهـــزج لمـــن ســـادوا ولا تشـــمت بمـــن دانـــا

بـــل أركـــع صـــامتا مثلـــي بقلـــب خاشـــع دامـــي

لنبكي حظ موتانا .

* * * * * * *

أخـــي إن عـــاد بعـــد الحـــرب جنـــديّ لأوطانـــه

وألقـــي جســـمه المنهـــوك في أحضـــان خلانـــه

فـــلا تطلـــب إذا مـــا عـــدت للأوطـــان خلانـــا

لأن الجـــوع لم يـــترك لنـــا صـــحبا نناجيهم

سوى أشباح موتانا .

* * * * * * *

أخي إن عاد يحرث أرضه الفلاح أو يزرع

ويبني بعد طول الهجر كوخا هده المدفع

فقد جفت سواقينا ، وهدّ الذل مأوانا

ولم يترك لنا الأعداء غرسا في أراضينا

سوى أجياف موتانا .

* * * * * * *

أخي قد تم ما لو لم نشأه نحن ما تما

وقد عمّ البلاء ولو أردنا نحن ما عمّا

فلا تندب فأذن الغير لا تصغي لشكوانا

بل اتبعني لنحفر خندقا بالرفس والمعول

نواري فيه موتانا .

* * * * * * *

أخي من نحن لا وطن ولا أهل ولا جارُ

إذا نمنا ، إذا قمنا ردانا الخزيّ والعارُ

لقد تخمت بنا الدنيا كما تخمت بموتانا

فهات الرفس واتبعني لنحفر خندقا آخر

نواري فيه أحيانا .

ويرغم موضوع القصيدة فقد بعد الشاعر عن الأدب الخطابي التقليدي ، وقد ظل شعراء المهاجر يعتبرون الإنسان أخاهم وظلت نداءات المحبة والإيثار تتردد في شعرهم .

وقد عدّ شعراء المهاجر الجديد في الشعر ، ما يحمل مضمونا إنسانيا جديدا يسري في حنايا العمل الشعري ويتغلغل في روح الكلمة والصورة والبناء ، كما مزجوا محبتهم للمرأة بمحبتهم للطبيعة والوطن والكون ، فالجمال في المرأة ، هو الجمال في الزهرة ، والشمس المشرقة ، والماء الساكن ، والجدول الوديع ،

يقول شفيق المعلوف :-

أزاهــر الضــفة أترابهــا
حســناء كــالزنبق في طهرهــا
قــد مهــدت متكئــا لينــا
مــن عشــب الحقــل ومــن شــعرها
لــو النــدى رش أزاهــيره
مــا ميّــز البــرعم مــن ثغرهــا
نامــت وقــد حامــت عليهــا المنــى
واستســلمت هانئــة للــرؤى
وانطبقــت شــباك أهــدابها
تحــرس في أجفانهــا اللؤلــؤا

وتتم المشاكلة بين المرأة والطبيعة في إحساس الشاعر، كشئ طبيعي، يقول إيليا أبو ماضي في قصيدة "المساء" :-

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين

والشمس تبدو وخلفها صفراء عاصبة الجبين

والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين

لكنما عيناك باهتتان في الأفق البعيد

سلمى بماذا تفكرين ؟

سلمى بماذا تحلمين ؟

هذى الهواجس لم تكن مرسومة في مقلتيك

فلقد رأيتك في الضحى ورأيته في وجنتيك

لكن وجدتك في المساء وضعت رأسك في يديك

وجلست في عينيك ألغاز وفي النفس اكتئاب

مثل اكتئاب العاشقين

سلمى بماذا تفكرين ؟

بالأرض كيف هوت عروش النور عن هضباتها

أم بالمروج الخضر ساد الصمت في جنباتها

أم بالعصافير التى تعدو إلى وكناتها

أم بالمسا ؟ إن المسا يخفي المدائن والقرى

والكوخ كالقصر المكين

والشوك مثل الياسمين

والملاحظ في القصيدة بعض سمات هذه المدرسة وهي الدعوة إلي التفاؤل ، والتساهل اللغوي فلا نقول :

كتبنا في القلم ، ولكن نقول : كتبنا بالقلم ، كذلك لا نقول : سلمى بماذا تفكرين ؟ ولكن نقول : سلمى فيم تفكرين ؟ وهكذا .... ، وتحقق الوحدة العضوية والصورة الكلية في القصيدة .

والوطن كان يتبدى من خلال الحبيبة حين يشف الحنين إلي الحبيبة عن الحنين إليه ، وكذلك يتبدى الوطن في شعر المهاجر الجنوبي خاصة خلال شعرهم عن الأمومة ، ويشارك الشاعر المهجري الوطن الأم في مشاكله وآلامه فها هو "نسيب عويضة" يضج بالثورة علي بنى قومه للاينتهم المستعمرين فيقول في قصيدة النهاية :

كفنوه

وادفنوه

أسكنوه

هوة اللحد العميق

واذهبوا لا تندبوه ، فهو شعب

ميت ليس يفيق

* * * * * * *

ذلّلوه

قتلوه

حملوه

فوق ما كان يطيق

حمل الذل بصبر من دهور

فهو في الذل عريق

* * * * * * *

هتك عرض

نهب أرض

لم تحرك غضبه

فلماذا نذرف الدمع جزافا

ليس تحيا الحطبة

* * * * * * *

لا وربي

ما لشعب

دون قلب

غير موت من هبة

فدعوا التاريخ يطوى سفر ضعف

ويصفى كتبه

ولنتاجر

في المهاجر

ولنفاخر

بمزايانا الحسان

ما علينا إن قضى الشعب جميعا

أفلسنا في أمان ؟

* * * * * * *

ربّ ثاو

ربّ عار

ربّ نار

حركت قلب الجبان

كلها فينا ، ولكن لم تحرك

ساكنا إلا اللسان

ولعل شكل هذه القصيدة يقودنا إلي قضية التجديد في البناء الشعري ، ودور شعراء المهاجر في ترسيخ أسسه ، وعموما تأثر شعراء المهاجر بالموشحات وما حوته من اشكال موسيقية اعتمدت علي التنويع في القافية أو اللعب بعدد التفاعيل

داخل النظام المتوارث لموسيقي الشعر العربي ؛ لذلك كان تجديد شعراء المهاجر في قوافي الشعر وأوزانه تجديدا محدودا سائرا علي خطوات أصحاب الموشحات .

(هـ) جماعة أبو للو :

لو قارنا بين المجددين من جماعة الديوان والمجددين من مدرسة المهجر يتبين لنا أن شعر المهجر كان أكثر انطلاقا وتحررا وأقل ذهنية وأغزر عاطفة من شعر جماعة الديوان . وقد كان الشعر المهجري أحد العوامل التي هيأت لظهور جماعة أبو للو . كما كان التأثر بالشعر الأوربي وخاصة شعر الرومانتيكيين عاملا آخر . فأحمد زكى أبو شادى رائد الاتجاه الابتداعي العاطفي عاش في انجلترا عشر سنوات لإتمام دراسته في الطب . وإبراهيم ناجي كان من المجيدين للغة الإنجليزية ومن المتصلين بالشعر الإنجليزى بالإضافة إلي معرفته بالفرنسية وقراءته لبعض الشعراء الفرنسيين . ومحمد عبد المعطي الهمشرى الذي يمثل خصائص هذا الاتجاه . كان يتمثل بعض خصائص الشعر الإنجليزي الرومانتيكى . وكذلك علي محمود طه المهندس . وصالح جودت . وحسن كامل الصيرفي .

وقد ظهر هذا الاتجاه لسد الفراغ في الحياة القومية وللصراع الذي احتدم بين المحافظين وعلي رأسهم شوقي والمجددين الذهنيين وعلي رأسهم العقاد . وكذلك كان الصراع بين الاتجاه المحافظ البياني والاتجاه التجديدى الذهنى عاملا ثالثا . أيضا شارك العامل الاجتماعي في إظهار هذا الاتجاه بطابعه الابتداعي المنطلق ونزعته الفردية الثائرة . وقد اجتمعت روافد هذا الاتجاه سنة ١٩٣٢ من خلال مجلة أبو للو . وفي سنة ١٩٣٤ ظهرت الدواوين الأولي لمعظم شعراء هذا الاتجاه الجديد . فظهر

ديوان "الملاح التائـه" لعلي محمود طه ، و"من وراء الغمام" لإبراهيم ناجى ، و "الألحان الضائعة" لحسن كامل الصيرفي ، و"ديوان صالح جودت" الذي سماه باسمه ، وقد لفتت هذه الدواوين أنظار النقاد الكبار من أمثال العقاد وطه حسين ...

وعموما فقد أخذ هذا الاتجاه أحسن ما عند المحافظين والمجددين بل وتأثر أيضا بالثقافات الغربية ، مما جعلهم يتأثرون بالرمزية والسريالية والرومانسية والواقعية وغيرها ، وندر منهم من اقتصر شعره علي مذهب واحد من هذه المذاهب وقد اتخذ شعراء هذا الاتجاه الحب ملاذا يفرون إليه ، وعزاء يعوضون به ظلم الدهر ، مرتقي يحملهم فوق العالم الأرضى .

يقول ناجي :

هوى كالسحر صيرنى أرى بقريحة الشهبِ
وطهرنى ويصرنى ومزق مغلق الحجبِ

* * * * * * * *

سموت كأننى أمضى إلي ربّ ينادينى
فلا قلبى من الأرض ولا جسدى من الطينِ

* * * * * * * *

سموت ودق إحساسى وجزت عوالم البشرِ
نسيت ضغائن الناس غفرت إساءة القدرِ[1]

---

(١) ديوان ناجى "قصيدة في صلاة الحب" صـ٢٦٣

وقد كلف شعراء أبو للو بالمرأة روحا ووجدا وعذابا وبعضهم كلف بها جسدا ومتعة ونعيما ، ومن النوع الأول ناجي والهمشري ومن النوع الثاني علي محمود طه وصالح جودت .

يقول صالح جودت :

أجل ظمآن يا ليلي	وماء الحب في نهرك
خذيني في ذراعيك	وضميني إلي صدرك
دعيني أشرب من النور	الذي ينساب في شعرك
وروّى لهفة الظمآن بالقبلة	من ثغرك
هبيني ليلة أثمل	يا ليلاى من خمرك

ومع ذلك كان شعراء هذا الاتجاه يجلون المرأة ويغفرون لها زلاتها .

ومن الموضوعات الهامة التي عنى بها شعراء هذا الاتجاه موضوع الطبيعة ، بل منهم من امتزج بها وذاب فيها ، وقد كانت الطبيعة المهرب الذي يلوذون به من كدر الحياة ، ويجدون فيها متنفسا من كل ضيق وألم ، فخلعوا عليها الخيال المجنح مما جعل لحديثهم عن الطبيعة قيمة ابتداعية .

يقول محمود حسن إسماعيل في قصيدته "الناى الأخضر" :

زمارتى في الحقول قد صدحت

فكدت من فرحتى أطير بها

الجــدىّ في مرتعــى يراقصــها

والنحــل في ربــوتى يجاويهــا

والضــوء مــن نشــوة بنغمتهــا

قــد مــال في ردأة يلاعبهــا

رنــا لهــا مــن جفــون سوســنة

فكــاد مــن ســكره يخاطبهــا

نفخــت في نايهــا فــأطربنى

وراح في عــذلتى يــداعبها

ســكران مــن بهجــة الربيــع بــلا

خمــرة رقرقــت ســواكبها

ومن الموضوعات التي أهتم بها شعراء هذا الاتجاه "موضوع الشكوى" حيث يجدون في الشكاية تعبيرا عن متعة الحزن ولذة الألم . وموضوع تصوير البؤس حتى وجدنا أبا شادي يكتب العديد من القصائد في الريف والفلاح ، ومحمود حسن إسماعيل يكتب ديوانا كاملا جعل محوره القرية وساكنيها سماه "أغاني الكوخ" .

ومن الموضوعات التى حظيت باهتمام شعراء هذا الاتجاه موضوع التأمل ،

ومن نماذج هذا الشعر التأملى *قول الصيرفى من قصيدة عنوانها "الحيارى"* :

قــد ســبحنا بــالفكر عنــدك يــا

ربّ فتاهــت أرواحنــا في سمائــك

وشــدونا مــا قــد شــدونا ولكــن

ضـاع هــذا جميعــه في فضــائك

وعرفنــا مــن الخيــال معانيــه

وغابــت عنــا معــاني جلائــك

وسمعنــاك في الضــمائر تــوحي

مــا يهــزّ القلــوب مــن إيحائــك

فجهلنــاه واســتمعنا إلــي مــا

يمــلأ الجــو مــن صــغير هوائــك

ورأينــاك في الظــلام مضــيئا

فمشــينا بــه حيــارى ضــيائك

ورأينــاك في الجمــال ولكــن

لم تقــدر لنــا حيــاة الملائــك

أنــت قــدرت أن نعــيش حيــارى

والحيــارى هنــا ضحايا قضائك

وقد ابتعد شعراء هذا الاتجاه – في فترة ظهوره – عن الشعر السياسي ، وشعر المناسبات باستثناء أحمد زكى أبو شادي الذي كان يهتم بالموضوعات السياسية والوطنية والقومية منذ وقت مبكر ، ولكن بعد سنوات أخذ شعراء أبوللو يدنون قليلا من الموضوعات السياسية والوطنية والقومية وخاضوا بشعرهم في بعض

المناسبات . فنجد لإبراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، ومحمود حسن إسماعيل بعض القصائد الوطنية والسياسية والقومية .

وبذلك كان لهذا الاتجاه مجموعة من الخصائص من حيث الأسلوب ، وطريقة الأداء

أولاها : استعمال اللغة استعمالا جديدا ، القصد منه التوسع في نقل الألفاظ من مجالات استعمالاتها المألوفة إلي مجالات أخري مبتكرة .

والثانية : تجسيم المعنويات أو تحويلها من مجالها التجريدي إلي مجال آخر حسيّ حيّ ينبض ويتحرك ،

والثالثة : منح الحياة الإنسانية لما ليس بإنسان ومن ذلك قول ناجي وقد عاد إلي بيت أحبابه فوجده قد تغير :

والبلي أبصرته رأي العيان

وبداه تنسجان العنكبوت

صحت : يا ويحك تبدو في مكان

كل شئ فيه حيّ لا يموت

* * * * * * * * *

كل شئ من سرور وحزن

والليالي من بهيج وشجي

وأنا أسمع أقدام الزمن

وخطى الوحدة فوق الدرجِ

والرابعة : تجريد المحسوسات وتحويلها من المجال المادي إلي المجال المعنوي وهذه الخاصية السابقة .

والخامسة : التعاطف مع الأشياء بحيث يمتزج بها أو يحل فيها ، ومن ذلك قول الهمشري في قصيدته *"النارنجة الذابلة"* :-

وهنـا تحركـت الشـجيرة في أسـى
ويكـى الربيـع خيالهـا المهجـورُ

وتـذكرت عهـد الصـبا فتأوهـت
وكأنهـا بيـد الأسـى طنبـورُ

وتـذكرت أيـام يرشـف نورهـا
ريـق الضـحى ويزورهـا الـزرزورُ

والسادسة : خاصة التعبير بالصورة كقول أبي شادى في ملاحة النساء :

هيفـاء ينـبض بالملاحـة جسـمها
فـترى الحيـاة مـن الثيـاب تطـل

ومـن أمثلـة الصـور الـتي تمثـل مشـهد خارجيـا حسـيا يمتـزج فيهـا الحقيقـة بالخيال قول الهمشري في قريته ،

وقد نسجت أيدي الشتاء سياجها
عليهـا وأسـوار الظـلام تحاصـرُ

لقد رنقت عين النهار وأسدلت

ضفائرها فوق المروج الدياجرُ

وقد خرج الخفاش يهمس في الدجى

ودبت علي الشط الهوام النواقرُ

وطارت من الجميز تصرخ بومة

علي صوت هرّ في الدجى يتشاجرُ

وفي فترات ينبح الكلب عابسا

يجاوبه ذئب من الحقل خادرُ

ومن الصور الكلية التي تصور حالة نفسية داخلية وتعتمد علي الخيال المستمد من الواقع قول ناجى عن لحظة إحساس إبداعي قد انتابته هو وصاحبته:

ومن الشوق رسول بيننا

ونديم قدّم الكأس لنا

وسقانا فانتفضنا لحظة

لتراب آدميّ مسّنا

والسابعة : التجديد في الوصف بأوصاف لم يعرفها الاستعمال اللغوى ، ولم يألفها التراث الشعري ، فالمرأة ليست شمسا ولا قمرا يقول ناجي :

أين من عينى حبيب ساهر

فيه نبل وجلال وحياء

واثـــق الخطـــوة يمشـــي ملكـــا

ظـــالم الحســـن شـــهي الكبريـــاء

عبـــق الســـحر كأنفـــاس الربـــى

ســـاهم الطـــرف كـــأحلام المســـاء

مشـــرق الطلعـــة في منطقـــه

لغـــة النـــور وتعـــبير الســـماء

والثامنة : الإكثار من استعمال الألفاظ المرتبطة بالطبيعة والألفاظ المتصلة بالجوهر الروحى .

والتاسعة : الميل إلي الألفاظ الرشيقة البريئة من الجفاف والوعورة .

والعاشرة : استخدام بعض الألفاظ الأجنبية في شعرهم .

وأما خصائص هذا الاتجاه في موسيقا الشعر فأهمها الاعتماد علي القالب المقطعى إلي جانب الاعتماد علي القالب الموحد بمعني أنهم أكثروا من نظم القصائد المؤلفة من مقاطع ، تختلف فيها القافية من مقطع إلي مقطع ، والقصيدة تصاغ من عدة أوزان ، ولنتمثل بقصيدة "الموسيقية العمياء" لعلي محمود طه وفيها نتبين وحدة الأداء النفسي التي يكمل معناها بدعامتين :

الأولي : الصدق الشعوري وميدانه الإحساس .

والثانية : الصدق الفنى وميدانه التعبير .

يقول علي محمود طه :

إذا ما طاف بالأرض شعاع الكوكب الفضي

إذا ما أنّت الريح وجاش البحر بالومضِ

إذا ما فتح الفجر عيون النرجس الغضِ

بكيت لزهرة تبكي بدمع غير مرفضِ

* * * * * * * *

ذواها الدهر لم تسعد من الإشراق باللمحِ

علي جفنين ظمآنين للأنداد والصبحِ

أمهد النور: ما لليل قد لفك في جنح

أضئ في خاطر الدنيا وواراسناك في جرحي

* * * * * * * *

أرى الأقدار يا حسناء مثوى جرحك الدامى

أريها موضع السهم الذى سدده الرامى

أنيلى مشرق الإصباح هذا الكوكب الظامى

دعيه يرشف الأنوار من ينبوعها السامى

* * * * * * * *

وخلّى أدمع الفجر تقبل مغرب الشمسِ

ولا تبكى علي يومك أو تأسى علي الأمسِ

إليـك الكـون فاشـتفى جمـال الكـون بـاللمسِ

خـذى الأزهـار في كفيـك فالأشـواك في نفسـي

* * * * * * * *

إذا مـا أقبـل الليـل وشـاع الصمت في الـوادي

خـذى القيثـار واسـتوحى شـجون سـحابه الغـادي

وهـزى الـنجم إشـفاقا لـنجم غـير وقـادِ

لعـل اللحـن يسـتدعى شـعاع الرحمـة الهـادى[1]

والقصيدة طويلة وهى من ديوان "ليالي الملاح التائه" ونستطيع من خلالها تحليل وحدة الأداء النفسي لدى جماعة أبوللو مما يجعلنا نرجح تحقق الوحدة العضوية لدى شعراء هذا الاتجاه الابتداعي العاطفى .

(و) المدرسة الواقعية :

نشأت هذه المدرسة في نهاية الخمسينات وأوائل الستينيات ، وقد خطت خطوة حاسمة ، فاستيقظت علي وعى جماعي أيقظه التحرر من سيطرة الاستعمار، واشتداد تيار القومية العربية ووحدة الكفاح من أجل التحرر. واحتلال اليهود بمعاونة انجلترا علي بقعة مقدسة من الأرض العربية، ..

وبدأ منذ ذلك الوقت في العالم العربي جيل من الشباب يؤمن بقضايا الوطن سواء أكانت إقليمية أم قومية عربية أم إفريقية أسيوية أم إنسانية عامة ، وينهض

---

(١) ديوان "ليالي الملاح التائه" صـ١٠٨

بعبء التزام فلسفة إجتماعية جديدة قوامها النهوض بالملايين الكادحة ، من أجل ذلك ارتبطت هذه المدرسة بالاشتراكية العالمية ، ..

وبذلك نشأت حركة الأدب الجديد قائمة علي أساس واقعي ، وأخذ أصحابها يهاجمون الوجدان الذاتي هجوما عنيفا فهذا "أحمد كمال عبد العليم" يهاجم "علي محمود طه" في قصيدة سماها "إلي الشاعر التائه" *يقول فيها* :

ما لعينيك تبسمان وعيناى	تموجان ثورة ووميضا
ما لقلبي وأنت قلبك راض	يطلب النور والفضاء العريضا
ما لروحى تكاد تقتل جسمى	فتراه العيون جسما مريضا
ما لمثلي يرى الليالي سودا	ويرى مثلك الليالي بيضا
ما لشعرى طغى الجنون عليه	أم ترى أنت لا تراه قريضا

أنت تخلو إلي النجوم إلي الزهر إلي الطير حينما يتغنى

ربة الخمر باركتك فغنيت هراء ورحت تسأل دنا

في سماء الخيال ضم جناحيك تقع بيننا فتصبح منا

دع جمال الخيال وادخل كهوفا للملايين وارو للكون عنا

إنما الفن دمعة ولهيب ليس هذا الخيال والتيه فنا .

* * * * * * * *

قلّب الطرف هل ترى غير جهل وهزال وآهة مكتومة وعيون

قد أغمضت ويخور أطلقوه فراح يذرى سمومه وجيوش من

الخداع تمشيها أكف لغاية مرسومة

وأكف هى المنابع للمال أضاعت سنينها محرومة

دع جمال الخيال وادخل كهوفا للملايين وارو للكون عنا

إنما الفن دمعة من لهيب ليس هذا الخيال والتيه فنا

والمدرسة الواقعية عبارة عن ثورة وتمرد وتمزق وتألم تعمل علي إيصال تجربة الشاعر مع لمحات من الصور اليائسة للطبقات الكادحة .

يقول البياتى :

الملايين التى تكدح ، لا تحلم في موت فراشة

وبأحزان البنفسج

أو شراع يتوهج

تحت ضوء القمر الأخضر في ليلة صيف

أو غراميات مجنون بطيف

الملايين التى تكدح

تعرى

تتمزق

الملايين التى تصنع للعالم زورق

الملايين التى تصنع منديلا لمغرم

الملايين التي تبكي .. تغني .. تتألم

في زوايا الأرض في مصنع صلب أو بمنجم

إنها تمضغ قرص الشمس من موت محتم

إنها تضحك من أعماقها

تضحك

تغرم

لا كما يغرم مجنون بطيف

تحت ضوء القمر الأخضر في ليلة صيف

الملايين التي تبكي .. تغني .. تتألم

تحت شمس ليل باللقمة تحلم

وقد أدرك أصحاب هذه المدرسة أن الشعور لا قاموس له ، وأن الشعر الحديث قد تجاوز منطقة القاموس الشعري ، ومن رواد هذا الاتجاه صلاح عبد الصبور الذي حاول التحرر من اللغة الشعرية التقليدية إلي لغة أكثر ملاءمة ، يقول في قصيدته "الحزن" :

يا صاحبي ، إني حزين

طلع الصباح ، فما ابتسمت ، ولم ينر وجهي الصباح

وخرجت من جوف المدينة أطلب الرزق المباح

وغمست في ماء القناعة خبز أيامي الكفاف

ورجعت بعد الظهر في جيبي قروش

فشربت شايا في الطريق

ورتقت نعلي

ولعبت بالنرد الموزع بين كفي والصديق

قل ساعة أو ساعتين

قل عشرة أو عشرين

وضحكت من أسطورة حمقاء رددها الصديق

ودموع شحاذ صفيق

في هذا الجزء من القصيدة لم يعد رائد الشاعر في اختيار اللفظة موسيقاها أو جمال إيقاعها ، بل كونها أفضل وأدق في التعبير عن تجربة الشاعر ، وبرغم تأثره بالثقافات المتعددة إلا أننا نجد قدرا كبيرا من الأصالة الذاتية والاجتماعية ولنتأمل الفقرة التي يقول فيها صلاح عبد الصبور :

كان زهران غلاما

أمه سمراء والأب مولد

وبعينيه وسامة

وعلي الصدغ حمامة

وعلى الزند أبو زيد سلامة

ممسكا سيفا وتحت الوشم نبش كالكتابة

اسم قرية

"دنشواي"

هذه فقرة أو مقطع الصورة المصرية فيه زاعقة يتمسك بها الوجدان الشعبي والريفي في أوسع قطاعاته .

والمتأمل لدواوين شعرائنا المعاصرين يلاحظ أنهم قد واجهوا في قصائدهم موضوع المدينة فنجد ذلك في ديوان "مدينة بلا قلب" لأحمد عبد المعطي حجازى ، وديوان "قلبى وغازلة الثوب الأزرق" لمحمد إبراهيم أبو سنة ، وكلاهما يتصل بموضوع المدينة ، ولعل قصيدة البياتى "المدينة" علامة علي معاناته وغربته :-

وعندما تعرت المدينة

رأيت في عيونها الحزينة

مباذل الساسة واللصوص والبيادق

رأيت في عيونها المشانق

تنصب والسجون والمحارق

والحزن والضياع والدخان

رأيت في عيونها الإنسان

يلصق مثل طابع البريد

في أيما شئ

رأيت الدم والجريمة

وعلب الكبريت والقديد

رأيت في عيونها الطفولة اليتيمة

ضائعة تبحث في المزابل

عن عظمة ، عن قمر يموت فوق جثث المنازل

رأيت إنسان الغد المعروض في واجهة المخازن

وقطع النقود والمداخن

مجللا بالحزن والسواد

مكبلا يبصق في عيونه الشرطى

رايت في عيونها الحزينة

حدائق الرماد

غارقة في الظل والسكينة

وعندما غطى المساء عريها

وخيم الصمت علي بيوتها العمياء

تأوهت وابتسمت رغم شحوب الداء

وأشرقت عيونها السوداء بالطيبة والصفاء

إذا تأملنا القصيدة نجد فيها وفي غيرها وفرة في القوافي وسرعة في التنقل بينها، فوظيفة القافية لم تعد ضبط الوزن . فالشاعر في قصيدته يعيدنا إلي فظرية القافية ومدى إرتباطها بقيمتها الموسيقية الخاصة ، وبذلك نستطيع أن نقول . الشعر الحر الذى نهجته المدرسة الواقعية قد حرر الوزن من القافية ، كما حرر القافية من الوزن ، وأصبحت القصيدة القصيرة تعبر عن فكرة واحدة ذات طبيعة مركبة ومتصارعة تحقق تأثيرها عن طريق التضاد والتنافر.

وعموما القصيدة تكتسب بنيتها من تعدد الأصوات فيها بدل صوت الشاعر المفرد الذى نجده في القصيدة التقليدية ، كذلك استعانت القصيدة بالحوار مع النفس ومع الآخر ، ولننظر في هذا المقطع من قصيدة "رحلة في الليل" *لصلاح عبد الصبور* :

فحين يقبل المساء يقفر الطريق والظلام
محنة الغريب
يهب ثلة الرفاق ، فُض مجلس السمر
"إلي اللقاء" – وافترقنا – نلتقى مساء
"الرخ مات" فاحترس – الشاه مات !
لم ينجه التدبير إنى لاعب خطير
"إلي اللقاء" – وافترقنا – نلتقى مساء غد
أعود يا صديقتى لمنزلي الصغير
وفي فراشي الظنون لم تدع جفنى ينام
مازال في عرض الطريق تائهون يطلعون .
ثلاثة أصواتهم تنداح في دوامة السكون
كأنهم يبكون

- "لا شئ في الدنيا جميل كالنساء في الشتاء"
- "الخمر تهتك السرار"
- "وتفضح الأسرار"

- "والشعار والدثار"

ويضحكون ضحكة بلا تخوم

ويقفز الطريق من ثغاء هؤلاء

ونهاية المطاف ليس الشعر المعاصر شعرا منثورا كما يظن البعض . وإنما هو شعر ملتزم يلتزم ببحور الخليل مكتفيا بالبحور المتساوية التفاعيل وهو مع التزامه لهذه البحور يتحرر من نظام البيت الكامل ويعتمد في نظمه علي السطر الشعري الذي يختلف طولا وقصرا حسب انفعال الشاعر . أيضا يعتمد الشعر المعاصر علي الصورة المركبة التى تعتمد علي عقلية الإنسان المعاصر عمد إلي تحطيم الشكل التراثي ، فأخذ بالتفعيلة بديلا عن الشطر . واضرم نيران الثورة في المضمون ، وبالتالي حقق وحده العاطفة الصادرة عن التوافق بين التجربة الذاتية والحقيقة الموضوعية .

وهكذا صارت حركة الشعر العربي الحديث حركة إعادة الاعتبار للتجربة الإنسانية بل حركة ترتبط بصميم الأدب وأجناسه وهي علي كل الأحوال حركة روح ثائرة متجددة .

الفصل الثاني :

النثر في العصر الحديث

كان لنمو الوعى القومي ، وإحياء التراث العربي القديم ، والتأثر بالحضارة الغربية الحديثة ، وانتشار المطابع والمكتبات والمجامع اللغوية والجمعيات الأدبية أثرا واضحا في النثر الأدبي ، فقد تحرر من السجع وألوان الصناعة اللفظية ، ومال إلي السهولة والوضوح ، وهجرت الأغراض القديمة من المقامات والرسائل الإخوانية، وجدت أنواع أخرى كالمقال والقصة والمسرحية ، وقد تطور المقال من العصر العباسي حتى الآن وكان يسمي رسالة مثل "رسالة التربيع والتدوير" للجاحظ ، والتي يسخر فيها من أحمد بن الوهاب أحد جلساء الوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات ، واستمرت المقالات تكتب تحت اسم الرسائل حتى بداية العصر الحديث وظهور الصحافة فتحول اسمها إلي المقالة ، وكانت تكتب في بداية العصر الحديث بلغة هابطة علي غرار ما كان سائدا في العصر العثماني وكان من سماتها في هذا العصر ضعف الفكرة ، والتطويل بدون فائدة والسجع المتكلف علي حساب المعنى ، وبعد ذلك تحرر الكتّاب من قيود الصنعة اللفظية ، وتناولوا الموضوعات الاجتماعية والسياسية والفلسفية والدينية ، والأدبية وكان لإحياء التراث والاتصال بالغرب عن طريق الترجمة ، والبعوث ، واستقدام الأساتذة وظهور الصحف والتعليم أن ظهرت طائفة من النقاد هاجموا الطريقة العثمانية وحرروا كتاباتهم من التكلف ومن وكالة الأسلوب ومن ضعف الأفكار ، من هؤلاء الكتّاب لطفى السيد وطه حسين والعقاد وعبد الله النديم والإمام محمد عبده والشيخ علي

يوسف ومصطفي كامل وغيرهم ، وقد ارتبط المقال بالصحافة إذ رافقها علي طريق التطور متأثرا بالمقال الغربي ، وقد ظهر المقال السياسي نتيجة للوعى القومي وظهرت الصحف السياسية حافلة بالمقالات التى تنمى الوعي القومي كمقالات الشيخ محمد عبده ، وعبد الله النديم ، وعلي يوسف وغيرهم ، كما أصبحت الصحافة مجالا كبيرا للمقالات الأدبية والاجتماعية والفلسفية ، وقد نجحت الصحافة في جذب الأدباء إليها ، ودفعت أسلوبهم إلي الترسل والتركيز والوضوح ، كما دفعتهم إلي التحليل والتعليل ووضوح الفكرة ودقة التعبير .

اتجاهات كتابة المقال

(أ) الاتجاه المحافظ :

وعلي رأس هذا الاتجاه طبقة ممتازة من الكتاب مثل علي يوسف ومصطفي كامل وفتحي زغلول وقاسم أمين وعبد العزيز محمد وأحمد لطفي السيد ومحمد عبده ومصطفي لطفي المنفلوطي ومصطفي صادق الرافعي وغيرهم ، وكان لهذه الطبقة الأثر العميق في إصلاح حياتنا السياسية والاجتماعية ، ومن الواجب أن نذكر مقالات المنفلوطي التي كان ينشرها في صحيفة المؤيد والتي كانت تتناول بعض جوانب المجتمع والتي جمعها في كتاب بعنوان "النظرات" ولنأخذ جزءا من مقالة "الصغيران" مثالا علي الاتجاه المحافظ .

يقول الرافعي :

"في تلك الساعة كانت الأرض قد عريت إلا من أواخر الناس ، وطوارق الليل ، وبقية من يقظه النهار ، تحبو في الطريق ذاهبة إلي مضاجعها ، فبينما أمد عيني ، وأديرهما في مفتتح الطريق ومنقطعه ، إذ انتفضت انتفاضة الذعر ، ووثبت رجة القلب بجسمي كله كما تثب اللسعة بملسوعها ، وذلك حين أبصرت الطفلين" .

هذا الجزء من نص إجتماعي يعالج قضية الأطفال الذين يواجهون موقف الضياع في زحام المدينة ، وقد تحققت في النص خصائص المقال الأدبي من حيث انتقاء الألفاظ والعاطفة القوية والاستعانة بالصور الخيالية والمحسنات غير المتكلفة، وقد عرضه الكاتب في أسلوب قصصي شائق وقد وضح فيه الاتجاه إلي

الواقعية في اختيار الموضوع والتحليل والتعليل ومزج الحقيقة بالخيال والدقة في اختيار اللفظ الأصيل مع إحكام الصياغة والتحرر من السجع والمحسنات المتكلفة، وتمثل الفقرة السابقة مرحلة من مراحل ازدهار وتطور النثر الحديث من حيث اتساع الأغراض والعناية بالفكرة، وحيوية اللفظ، والتحرر من الصنعة، وروعة التصوير، وواقعية الأداء.

ولم تكن محاولات تطوير النثر قاصرة علي المقالة، بل امتدت إلي القصة ويعد الدكتور محمد حسين هيكل رائدا من رواد القصة في مصر فقصة "زينب" تصور حياة ريفنا المصرى وطبقاته الغنية والفقيرة، وما يقوم بين هذه الطبقات من عوائق اجتماعية. ومن المحقق أن جذوة الفكر المصرى استطاعت منذ أوائل القرن التاسع عشر أن ترسل ضوءها في شتى الاتجاهات العقلية والفكرية ورغم ذلك كانت تسير في أناة وتريث.

(ب) الاتجاه بين الجديد والقديم:

تبدلت الحياة السياسية والاجتماعية بعد الحرب الأولي تبدلا واضحا، فقد نالت مصر الاستقلال إلي حد ما، وانتشر التعليم، ولم تلبث الأحزاب أن نشأت ودأبت صحفها وما عاصرها من مجلات أدبية كالهلال والمقتطف والسياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي علي أن تنقل إلي القراء مباحث واسعة في الأدب سواء بالتأليف أم بالترجمة، ولم تلبث الخصومات الحزبية أن انتقلت من السياسة إلي الأدب، وقد حمل لواءها نفر جديد من الكتاب مثل العقاد والمازني

وهيكل وطه حسين ، وكما كان نقد الشعر عنيفا كذلك كان النثر الأدبي فقد هاجم المازني المنفلوطي واتهمه بضعف الثقافة ، وأن أسلوبه لفظي لا يحوي معنى ولا فكرة ولا يحوي سوى الدموع والعبرات مما يستهوي المراهقين ، وبذلك وجدنا الكاتب الجديد لم يعد يرضيه الأسلوب الجزل الرصين فحسب ، بل هو يطلب الفكر الواسع الذي يمهد للتعبير الدقيق عن الإحساس والإدراك الفكري ، وللعقاد أيضا جولات وصولات في هذا الصدد مع مصطفي صادق الرافعي فقد كان محافظا محافظة شديدة ، وكذلك نشبت معركة حادة بين الرافعي وطه حسين ، فالرافعي يذود عن حصنه القديم وطه حسين يرميه بسهام الذوق الحديث الذي تغير تغيرا تاما وأصبح تعبيرا طبيعيا عن حياتنا ، وكان رأي هذا الاتجاه أنه لا بأس من استعارة معاني وأساليب الغربيين في الكتابة مادام ذلك لا يفسد جمال اللغة العربية وروعتها ، وتتحول المسائل المطروحة في النثر إلي معارك بين القديم والجديد ، وكان رأي أدبائنا المجددين من أمثال طه حسين وهيكل والعقاد والمازني أن يظلوا مع الأسلوب الفصيح الرصين الجزل حتى يكون لأدبهم موقع حسن في الآذان والقلوب ، فهم يحرصون علي الألفاظ الصحيحة التي تقرها المعاجم ، وهم في هذا الإطار يجددون بما لا يخرج عن أصول اللغة العربية وهم يعملون علي تنميتها بما يضيفون من نماذج وأفكار جديدة ومعنى ذلك أن هذا الاتجاه لم يكن هدما للقديم ، وإنما كان إحياء له وبعثا ، فهم في تجديدهم لم ينقطعوا عن القديم لا في الأدب ولا في النقد ، بل اعتمدوا علي عنصرين متكافئين وهما المحافظة علي إحياء القديم والإفادة من الآداب الغربية ، والحق أن هؤلاء المجددين أحدثوا في لغتنا مرونة واسعة ، وجذبوا

إليهم عناصر من الشباب الذين أجادوا اللغات الأجنبية وفهموا بوضوح الآداب العربية مثل توفيق الحكيم ومحمود تيمور وغيرهما وبذلك أصبحنا بعد الحرب الثانية نملك أدبا جديدا ، لم يقف عند المقالة أو عند قصة ناقصة التأليف بل أصبحت المقالة أكثر غنى وتنوعا سواء في السياسة أم في الأدب ، وكتب الكتاب قصصا ومسرحيات كاملة التأليف فيها الحبكة والعقدة والتسلسل الروائي وكل ذلك في لغة عربية فصيحة لينة عذبة .

ولنأخذ نموذجا لهذا الاتجاه ما كتبه طه حسين تحت عنوان "القدماء والمحدثون" .

"لم يخل عصر أدبي في حياة الأمم التي كان لها نصيب من الأدب وحظ من إتقان القول وإجادته ، من هذه المسألة (مسألة القدماء والمحدثين) ولم تظهر في عصر من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافا عظيما وجدالا عنيفا .

وقسمت الأدباء علي اختلاف فنونهم الأدبية أقساما ثلاثة :

قسم يؤيد القدماء تأييدا لا احتياط فيه ،وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين ، وقسم يتوسط بين أولئك وهؤلاء ويحاول أن يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها ، وأن يستفيد من خلاصة ما ترك القدماء ، ويضيف إليها ما ابتكرت عقول المحدثين من ثمرات أنتجها الرقى وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف" .

إذا تأملنا النص السابق فسنجد كل الخصائص التي تحدثنا عنها عند مناقشة الاتجاه بين القديم والحديث فالمقال يمتاز بانتقاء الألفاظ وحسن تنسيقها وعمق الأفكار وترابطها وتحليلها والتعليل لها والإلمام بالصور الجميلة وبعض المحسنات غير المتكلفة فالأفكار واضحة والصور قليلة لاعتماد الكاتب علي حيوية الألفاظ وموسيقاها التصويرية وهي ملائمة للجو النفسي والألفاظ سهلة واضحة الصياغة والموسيقا واضحة نتيجة للازدواج والترادف والإطناب .

ولنأخذ جزءا من نموذج آخر وهو "تربية الرأي العام" لتوفيق الحكيم لنضيف أشياء إلي ما سبق تحليله "من نتائج الحضارة الحديثة ، وآثار التعليم الشامل الموحد ظهور ما يسمونه (الرأي العام) أي شعور الجماعة نحو موقف من المواقف ، وقرارها إزاء مسألة من المسائل وهذا الشعور، وهذا القرار ينبعان فجأة وفي الوقت عينه كأنهما خارجان من قلب واحد ، وعقل واحد ... لكأن هذا الرأي العام إذن كائن مستقل ، يُخلق ويحبو وينمو ، إلي أن يصبح قوة ناضجة ، وحركة موجهة ، تؤثر في الدولة والمجتمع ، ويحسب لها الحكام والمحكومون ألف حساب .

إنه يوجد كلما وجدت التربة الصالحة لظهوره ، وهذه التربة الصالحة هي الأمة الموحدة في جنسها ، وعقائدها وتقاليدها وآمالها ، وأهدافها .

إنه يُربي كما يُربي كل طفل صغير بالتعليم الشامل الواحد الذى يكون العقلية الواحدة الشاملة .. بهذا النوع من التعليم يشبّ (الرأي العام) علي تفكير واحد يُمكنه من أن يُبت في مسائله برأي واحد سريع قاطع .

لقد كثر التساؤل عن الرأى العام في بلادنا .. وهل له وجود حقيقى ؟ في رأييى أن بلادنا من أصلح البلاد تربة لوجود رأي عام ناضج قوى ، ولكن الذى يعوزنا هو الاهتمام بتربية هذا المولود ، التربية التى تؤهله لأن يصبح كائنا مستقلا ، واقفا على قدميه ، يفكر بعقل واحد ، ويؤثر في الدولة والمجتمع تأثيرا ظاهرا فعالا. فكل شئ في مصر يجعل هذا المولود مخلوقا مشوها مضطربا مبلبل الفكر، مشتت الرأي ، لأن كل شئ في بلادنا له نسخ متعددة ، وأثواب مختلفة ، لدينا تعليم أجنبي ، وحكومى ، وأزهرى ودرعمى ، وجامعى ، وخارجى ... إلخ ، ولدينا أحياء أوربية ، وأحياء وطنية ، وأحياء مختلطة .. ! ولدينا مطربشون ، ومعممون ، ومقبعون ، وحفاة ، ومحتذون ، ومقبقبون ، ولابسو الزى الافرنجى ، والزى البلدي ، والزى المختلط من أي طربوش ، ومعطف وجلباب ، أو طاقية ، وبيجامة وقبقباب .... الخ"

إنا تأملنا النص نجده يتناول مشكلة اجتماعية تهم الناس جميعا . الأفكار واضحة عميقة فيها تحليل وتفصيل وتعليل ، وهى مترابطة ، تمتاز بالدقة ، وقد عرض الكاتب البراهين الخطابية والعقلية للإقناع ، والصور في النص تؤدي دورها في عرض الأفكار تارة بالتجسيم وتارة بالتشخيص والتوضيح ، والألفاظ سهلة واضحة قريبة من لغة الحياة وهي في جملتها سليمة وقد نجح الكاتب في عرضها والاشتقاق منها ، والمقال يجمع بين جمال اللفظ وبعده عن جفاف المصطلحات العلمية وقد استخدم بعض الصور التوضيحية والمحسنات غير المتكلفة وقد جمع بين دقة المعاني وتحليلها والاستدلال عليها وعرض المشكلة وكيفية التغلب عليها .

(ج) الاتجاه التجريبي :

أستساغ شبابنا في هذه المرحلة الآداب الغربية وتمثلوها وأذاعوها في صورها وفنونها المختلفة ، ولم يعد بين أدبنا والأدب الغربي أي فاصل ، وعلي هذا النحو اتصلت حياتنا في القصة والمسرحية علي نحو ما هو معروف عند توفيق الحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ ويحيى حقى وغيرهم كثيرون ممن أجادوا الفن القصصي والمسرحى إجادة رائعة .

وكما تأثر الأدب العربي بالآداب الغربية تأثرت الآداب الغربية بالأدب العربي فترجمت القصص العربية إلي اللغات الأجنبية ومثلت مسرحيات الحكيم في النمسا وإيطاليا وفرنسا .

ولم يكد الزمان يتقدم حتى تراءى للناس أن أدباءنا ينشئون لغة جديدة بين العربية والعامية فيها فصاحة الأولي وجزالتها وفيها سهولة الثانية وقربها من الأفهام وكان للصحافة دورها في تبسيط أساليب الكتاب ، ونجح أدباؤنا في تبسيط الكتابة إلي أقصي حد ممكن وكادوا لا يبقون من الأساليب القديمة إلا ما صقله اللسان المصري ، وفهمته العامة .

وكذلك لعبت الإذاعة دورا خطيرا في تبسيط اللغة عن الصحافة فالصحف يقرأها من يحسنون القراءة بينما الإذاعة يسمعها القارئون والأميون .

ولنأخذ جزءا من مقال "أنت سيد قرارك" لصلاح منتصر :

"أنت سيد قرارك ... فبكلمة منك تستطيع أن تخرج من هذا السجن اللعين، الذى أصبحت فيه عبدا للسيجارة ، وحقلا خصبا لكل الكوارث والمصائب ، التى تفعلها في صدرك ، وقلبك ، وضغطك ، ومفاصلك ، وأعصابك .

وأنا أعرف مدخنين معاندين يصرون علي هذه العادة السيئة ... وهناك مدخنون يتمنون أن يأتي اليوم الذى يستطيعون فيه التخلص من السيجارة ، ولكنهم في حاجة إلي من يساعدهم ، ويشجعهم ويدلهم علي هذه الوسيلة التي يحققون بها أملهم .

وهؤلاء المدخنون يعتقدون أن الامتناع عن التدخين مستحيل ، ولكننا نقول لهم : إن مئات الآلاف استطاعوا أن يفعلوا ما يحلمون هم بتحقيقه ، وهو ما يعنى أن الامتناع عن التدخين قد يكون صعبا ولكنه ليس مستحيلا .

الصعوبة الأولي في أن تتخذ القرار وأن تبدأ تنفيذه ، وأن تصر علي التنفيذ والصعوبة الثانية أن تعرف أن أي متاعب تشعر بها في الأيام الأولي للامتناع عن التدخين لا تقاس بحجم المكاسب الصحية والمادية والنفسية التي تحققها إذا استطعت الصبر والتصميم .

وأنت في حاجة إلي أن تكره السيجارة بأن تنظر إلي أصابعك إذا لم تغسلها من آثار النيكوتين وأن تتصور منظر رئتيك ، وأن تحاول أن تجرى مائة متر فقط . وتسأل نفسك : هل يمكن لشاب في سنك ألا يستطيع ذلك ؟ وأن تستعيد شريط كل الذين عرفتهم ، وكانوا يدخنون ، وكيف رأيتهم بعد ذلك في اسرة المرض ؟

فإذا لم يكن من أجلك فليكن من أجل أولادك ، وإذا لم يكن من أجل صحتك فمن أجل أموالك ، ابدأ معنا في يوم السبت – بعد غد – اكتب شهادة ميلاد جديدة لحياة جديدة عنوانها : الصحة والنظافة والجمال .

وأنت وحدك سيد قرارك ... ولن تكسب أى شئ إذا استهترت بدعوتنا ، وأعطيتنا ظهرك ، فلن نخسر نحن شيئا ، ولكنك أنت الذى ستخسر ... اما إذا جئت معنا فسوف نكسب الكثير" .

النص مقال صحفى من نوع الخاطرة ، وهو مقال قصير في عمود يومي ، وهو يتمشى مع الطابع الصحفي العام الذى يهتم بمشكلات المجتمع ويعمل علي حلها في أسلوب قصير حاسم ، وأفكار النص واضحة مترابطة والصور جزئية تخدم المعنى وتؤثر في النفس ، وألفاظ النص سهلة واضحة فيها الكثير من معجم الحياة اليومية من مثل : (السيجارة – النيكوتين – الضغط – الأعصاب – أسرة المرض – من أجل أولادك – شهادة ميلاد – الصحة – النظافة) .

والعبارات تلائم القارئ العادى للصحيفة اليومية وفيها بعض الأساليب الإنشائية للنصح والإرشاد ، والمحسنات غير متكلفة فقد جاءت عفو الخاطر ، والأسلوب في جملته يمتاز بالوضوح وإن جاءت فيه بعض الأخطاء اللغوية لكنها هينة ، كما استعمل كلمات محدثة وهذه طبيعة الصحافة فالأهم فيها توصيل المعلومة إلي القارئ العادي بأيسر الطرق وبأسهل الكلمات .

الفصل الثالث :

فنـــــون نثرية جريــدة

ا: المقالة :

وهي قالب قصير لا يتجاوز نهرا أو نهرين في الصحيفة ، لم يعرفه العرب بهذا الشكل ولكن عرفوه بشكل آخر فهو عندهم يأخذ شكل كتاب صغير، وكانوا يسمونه الرسالة مثل رسائل الجاحظ ، وقد أخذوه عن اليونان والفرس وكانت الرسالة تخاطب الطبقة المتازة من المثقفين في عصورهم .

أما المقالة فقد أخذت عن الغربيين ، وقد أنشأتها عندهم ضرورات الحياة ، فلم تكن قاصرة علي الطبقة العليا في المجتمعات الغربية ، بل كانت تخاطب طبقات الأمة علي أختلافها ، وهي لذلك لا تتعمق في التفكير ولا تتكلف الزخرف اللفظى حتى تكون قريبة من الشعب وذوقه ، وبالتالي آثرت البساطة والجمال الفطري .

وقد تخلص أدباؤنا في الثلث الأخير من القرن الماضي من البديع والسجع وبهارجهما الزائفة التى كانت تثقل أساليب رفاعة الطهطاوى وتعوقها عن الحركة.

وسرعان ما وجدت عندنا المقالة السياسية الطليقة من أغلال السجع والبديع، وأخذت تخاطب الناس في شئونهم الوطنية ، كانت من نتيجة ذلك قيام ثورة عرابي ، ولذلك عندما حوكم زعماء الثورة حوكم معه كتاب المقالة فاختفى عبد الله النديم ، ونفي محمد عبده ، وأبعد جمال الدين الأفغانى بسبب مقالاتهم السياسية .

وأخذت المقالات السياسية تنمو وتتطور بظهور جيل جديد من الكتاب مثل مصطفي كامل والشيخ علي يوسف ولطفي السيد . ومما لا شك فيه أن أقوى شئ قاومنا به الاحتلال البريطاني هو مقالات مصطفي كامل في صحيفة "اللواء" . وكان دفاع الشيخ علي يوسف عن الإسلام والشرق في صحيفة "المؤيد" يوغر صدور الإنجليز المعتدين . بينما كان لطفي السيد في "الجريدة" يدعو إلي تربية الشعب تربية قويمة حتى ينتزع حقوقه من الاحتلال . وكان بجانبهم مصطفي لطفي المنفلوطي الذى كان يبث في النفوس معاني الرحمة والفضيلة ويصف بؤس المجتمع المصري .

ونصل بعد ذلك إلي الجيل الثالث الذي نشأ بعد الحرب العالمية الأولي ولعل خير من يمثل هذا الجيل أمين الرافعي وعباس العقاد ومحمد حسين هيكل وعبد القادر حمزة وطه حسين وإبراهيم المازنى .

وقد رافقت المقالة السياسية منذ نشأتها المقالة الأدبية . ولم تلبث أن أفردت لها مجلات خاصة أسبوعية أو شهرية مثل المقتطف والهلال . ثم نشأت مجلات مختلفة مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والرسالة والثقافة .

وقد نشأت المقالة الأدبية في المرحلة الأولي نشأة ساذجة ثم أخذت في التطور ولا نصل إلي الجيل الثاني حتى نراه يودع ما قرأه عند الغربيين في الأخلاق والاجتماع وشئون الفكر المختلفة . ولا يأتي الجيل الثالث من الكتاب حتى تصبح المقالة الأدبية علي يد هيكل والعقاد وطه حسين والمازنى أثرا فنيا قيما . وسار في هذا الطريق غير واحد من مثل توفيق الحكيم وغيره .

ولابد أن نشير إلي مقالات مصطفي صادق الرافعي وأحمد أمين الاجتماعية وكيف عالجا بعض مشاكل المجتمع في حديث هادئ ممتع .

ولابد أن نشير أيضا إلي شكل المقالة حديثا والذى تطور علي يد الكثيرين من كتاب الصحف كعلى أمين ومصطفي أمين ومحمد حسنين هيكل وإبراهيم نافع وصلاح منتصر وغيرهم من الكتاب .

٢): القصة :.

بدأت القصة مع الأدب الجاهلى وكانت تدور حول أيام العرب وحروبهم ، ثم وردت القصة في القرآن الكريم عن مختلف الأنبياء ومن أرسلوا إليهم .

وتكاملت كل العناصر الفنية في قصة يوسف عليه السلام وقد ترجمت كثيرا من قصص الأمم الأجنبية في العصر العباسي وكان من أشهر ما ترجم كتاب كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة ، وكان من الملاحظ أن القصص في العصر العباسي اتخذت اللغات العامية لسانا لها ، ولم يدخل في الأدب العربي الفصيح سوى المقامات ؛ وهى قصص قصيرة تصور مغامرات أديب متسول يخلب سامعيه بحضور بديهته وبلاغة عباراته وكثرة سخريته ، وقد اخترعها بديع الزمان ومن جاءوا بعده مثل الحريرى وكان الغرض من المقامات جمع طرائف من الأساليب المنمقة الموشاة بزخرف السجع والبديع .

وبذلك كانت القصة الطويلة تصاغ باللغة العامية بل عملت علي التفوق علي اللغة العربية الفصيحة ، وقد ظهر ذلك في قصصنا الشعبي مثل قصة عنترة وقصة الهلالية وقصة الظاهر بيبرس وقصة ذات الهمة وسيف بن ذى يزن وفيروز شاه وعلي الزيبق وأحمد الدنف ، وبذلك كان لنا في العصور الوسطى قصص شعبي ولكن لم يكن لنا قصص فصيح ، وفي عهد محمد على اتصلنا بأوربا ، وتأثر أدباؤنا بالقصص الغربى وحاولوا أن يترجموه ، وكان لرفاعة الطهطاوى الدور الأكبر في حركة الترجمة

فترجم "مغامرات تليماك" بتصرف ، أى نقل القصة إلي أسلوب السجع والبديع الشائع في المقامات وكذلك لم يتقيد بالأصل بل أباح لنفسه التصرف فيه ، فقد تصرف في أسماء الأشخاص وتصرف في المعانى ، فأدخل آراءه في التربية ونظام الحكم كما أدخل الأمثال الشعبية والحكم العربية ، فكان بذلك ممصرا قبل أن يكون مترجما ، وقد استمر التمصير طويلا من بعده ، وبدأ أدباؤنا يتحررون من السجع والبديع ، ولكنهم ظلوا يمصرون ما يترجمون من قصص ، وظل بعضهم يمصر القصة باللغة العامية مثل محمد عثمان جلال ، ورغم سيادة اللغة العامية في هذه الفترة إلا أن هذه السيادة لم تستمر فقد رجحت كفة المصرين من أصحاب الفصحى في أوائل القرن العشرين ومثلهم حافظ إبراهيم بتمصيره قصة "البؤسا" لفيكتور هيجو والمنفلوطى بتمصيره قصة "بول وفرجينى" وغيرها من القصص الأخري التى نشرها، ومع تقدم القرن العشرين يحاول بعض الأدباء إيجاد نماذج لهم فيكون النموذج الأول في إطار المقامة وهى حديث عيسى بن هشام ويكون النموذج الثانى قصة "زينب" لمحمد حسين هيكل وهى محاولة كاملة في صنع قصة بالمعنى الغربي الحديث ، وتلى ذلك بعد سنوات محاولة محمد تيمور تأليف مجموعة من الأقاصيص باسم "ما تراه العيون" وقد كثر بعد الحرب العالمية الأولي من يكتبون الأقصوصة كتابة فنية بارعة نذكر منهم محمود تيمور ، ومحمود لاشين في مجموعتيه "سخرية الناى" و "يحكى أن"

ومن أهم من لمعت أسماؤهم في القصة الاجتماعية طه حسين والمازنى ، وقد برع الأول في تصوير حياتنا المصرية في كثير من قصصه مثل الأيام ودعاء الكروان وشجرة البؤس .

أما المازني فقد عنى في قصصه بالجانب النفسي في الرجل والمرأة ، وهذا الاتجاه إلي التحليل النفسي يستمده من كتاب الغرب النفسيين ونرى ذلك في قصة "إبراهيم الكاتب" و"عود على بدء"

وللعقاد قصة "سارة" وهي تمتاز بتحليل عقلي واسع تسيطر عليه شخصيته العقاد التى تبالغ في المنطق وفي إبراز الأسباب والنتائج .

وجاء بعد هذا الجيل جيل اعتمد علي التحليل الاجتماعي لا علي التحليل النفسي وفي مقدمة هذا الجيل توفيق في قصصه عن بعض حوادث وتجارب رآها في حياته كما في "يوميات نائب في الأرياف" و"عصفور من الشرق" و"عودة الروح" وهو يطبع قصصه بطوابع إنسانية عامة وفي نفس الوقت يصور معالم الروح المصرية الشرقية ، وقد عنى محمود تيمور في قصصه بعيوبنا الاجتماعية ، أما نجيب محفوظ فقد أرخ للطبقات الشعبية وما تخضع له من الظروف المختلفة مما ينتهى بها أحيانا إلي الانحراف الاجتماعي .

كما ألف جورجى زيدان نيفا وعشرين قصة تاريخية تصور الأحداث العربية الكبري وهي ليست قصصا بالمعنى الدقيق وإنما هي تاريخ قصصى ، غير أننا لا نتقدم طويلا بعد الحرب الأولي حتى تأخذ القصة التاريخية كما لها في النضج ، وكان أول من أوفي بها إلي هذه الغاية محمد فريد أبو حديد في قصته "زنوبيا" و "الملك الضليل" و"المهلهل" ثم "جحا في جانبولاد" وهو في قصصه يتقن البناء القصصي ويرسم شخوصه وينفذ إلي دخائلها وخباياها النفسية ، ويأتى بعده وعلي منهجه علي الجارم ومحمد سعيد العريان ومحمد عوض محمد وكان للحرب العالمية الثانية الفضل في إتاحة الفرصة لازدهار فن القصة فقد أغلق البحر المتوسط أمام

أدبائنا ، فلم تعد ترد إليهم القصة الغربية ، فاعتمدوا علي أنفسهم وعلي بيئتهم المصرية العربية ، وبذلك أصبح لنا فنا عربيا متأصلا في بيئتنا ، لا فنا غربيا نستورده ونقيس علي أمثلته .

وبعد ذلك ومع تغير الظروف السياسية والاجتماعية مع بداية الثورة ظهرت أسماء كثيرة في عالم القصة والأقصوصة . فقد أصبحت عندنا قصة مصرية فعلا وأصبح لنا قصاصون مصريون مبدعون .

وإذا كان الأدباء قد قاموا بتمصير القصص الغربية قبل الحرب الأولي من هذا القرن فقد انتهي ميلهم إلي التمصير وحل محله ذوق جديد من الترجمة الحرفية الدقيقة ، ومعنى ذلك أنه أصبح لدينا قصص غربية حقيقية ، كما أصبح لدينا قصص مصرية حقيقية لا تقل جمالا وإبداعا عن القصص السابقة ، وقد ساهمت الكثير من دور النشر في هذه النهضة الأدبية مثل لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ودار الهلال ، ودار المعارف ، وغير ذلك من المؤسسات والهيئات .

٣: المسرحية :.

بدأت معرفتنا بالمسرح مع نزول الحملة الفرنسية إلي مصر فقد حملت فيما حملت إلينا المسرح الفرنسى وإن كانت الروايات تمثل بالفرنسية وبالتالي لم نتأثر به في حياتنا الأدبية ، وعندما اعتلى إسماعيل عرش مصر أنشا دار الأوبرا ومثلت فيها روايات غنائية إيطاليه ، وفي هذا التاريخ أنشأ يعقوب صنوع مسرحه بالقاهرة وقد مثل عليه بعض المسرحيات المترجمة وبعض التي ألفها ، ولم يكن يمثل باللغة العربية الفصحى إنما كان يمثل بالعامية .

ولم تلبث الفرق التمثيلية السورية واللبنانية أن وفدت إلي مصر، وكانت هذه الفرق تمثل مسرحيات فرنسية مترجمة تلائم ذوق الجماهير استبدلوا فيها الأسماء الفرنسية بأسماء مصرية، والأماكن الفرنسية بأماكن مصرية.

وأسرف المصرون في وضع الأشعار التى تغنى في المسرحيات حتى يرضوا جمهورهم الذى كان يعجب بالغناء وأناشيد الذكر واشتهر من الممثلين السوريين واللبنانين سليم النقاش وأبي خليل القبانى واسكندر فرح، ولم تمض مدة طويلة حتى شارك المصريون في هذا الفن الجديد. فاشتركوا أولا مع الفرق السورية واللبنانية ثم استقلوا بعد ذلك وكونوا فرقا مصرية مثل فرقة عبد الله عكاشة وفرقة الشيخ سلامة حجازى وفرقة عزيز عيد، وبعد فترة ليست بالطويلة يعود جورج أبيض من باريس بعد دراسته لفن التمثيل وسرعان ما ألف فرقة مسرحية عام ١٩١٢ وفي نفس السنة كون بعض الهواة "جمعية أنصار التمثيل" وكان ممن أنضم إلي هذه الجمعية عبد الرحمن رشدى وإبراهيم رمزى ومحمد تيمور، ثم ينضم الشيخ سلامة حجازى إلي جورج أبيض ويؤلفان فرقة واحدة عام ١٩١٤ وتظل الفرقة عامين، ويكون عبد الرحمن رشدي فرقة مسرحية أثناء الحرب العالمية الأولي ثم يظهر نجيب الريحانى باستعراضاته ويبتكر شخصية "كشكش بك" عمدة كفر البلاص، ويؤلف مع عزيز عيد فرقة تعنى بفن "الأوبريت"

وأخذ بعض الهواة الممثلين يؤلفون مسرحيات عربية استمدوها من قصص ألف ليلة وليلة ومن التاريخ العربي الإسلامي وصوره القومية، وقد برع في هذا الفن

ثلاثة أولهم فرح أنطون الذى ألف "مسرحية مصر الجديدة ومصر القديمة" عام ١٩١٣ وهى مسرحية اجتماعية صور فيها عيوب المجتمع وما تسرب إليه من مساوئ الحضارة الغربية وهي مسرحية ضعيفة في بنائها المسرحى ، وفي عام ١٩١٤ ألف مسرحية "السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم" وكانت مسرحية قوية في تصميمها المسرحى وقد صور فيها الصراع بين الشرق المسلم والغرب المستعمر . أما إبراهيم رمزى فبدأ من عام ١٩٨٢ في تأليف المسرحيات . غير أنه لم ينضج إلا بعد عودته من دراسة فن المسرح في انجلترا ، في عام ١٩١٥ كتب مسرحية "أبطال المنصورة" وهي مسرحية تاريخية عرض فيها صورا حية من البطولات المصرية في أثناء الحروب الصليبية ، والثالث هو محمد تيمور الذى توفي شابا عام ١٩٢١ وكان قد سافر بعد دراسته الحقوق إلي فرنسا لدراسة فن التمثيل . كتب أربع مسرحيات "العصفور في القفص" و "عبد الستار أفندى" و "الهاوية" و "العشرة الطيبة" والأخير ممصرة عن مسرحية فرنسية جعل حوادثها تجرى في عصر المماليك ، ناقدا تصرفات الطبقة التركية ، وقد راعى في مسرحياته أصول الفن التمثيلي ، غير أنه كتبها بالعامية .

وتنتهي الحرب الأولي ويعود يوسف وهبى من إيطاليا ، ويكون فرقة "رمسيس" ويأخذ كثير من الكتاب في تأليف المسرحيات الاجتماعية ويشتهر أنطون يزبك بمسرحياته العنيفة مثل "عاصفة في بيت" و "الذبائح" ويتخصص يوسف وهبى بتمثيل هذا النوع بينما ينشط نجيب الريحانى وعلي الكسار في التمثيل

الكوميدى . وفي عام ١٩٢٨ أصاب كل الفرق الركود ، وفي عام ١٩٣٤ تنشئ الدولة الفرقة القومية كما تنشئ المعهد العالي للتمثيل ، ويصاب المسرح بالركود بسبب ظهور السينما ، ولكن مع بداية عام ١٩٥٤ يعود المسرح لنشاطه بتشجيع من الدولة ،

وقد تطور التأليف المسرحي من الترجمة إلي التمصير إلي التأليف المسرحى، وكان دور توفيق الحكيم كبيرا إذ وثب بالمسرح وثبة لم يحلم بها كل من سبقوه . فقد أرسى قواعده في النثر . تسعفه ثقافة واسعة وثقافة مسرحية دقيقة ، وتلقى مسرحياته رواجا واسعا ، مما جذب كثيرين من الجيل الجامعي وغيره للانضمام إلي التأليف المسرحي ومن أهم من جذبهم محمود تيمور ثم نقل من العامية إلي الفصحى بعض مسرحياته وأنشأ مسرحيات أخرى باللغة الفصحى وبجانب تيمور والحكيم صنعت محاولات كثيرة في التأليف المسرحي ، وبذلك استطاعت مصر أن تحقق لنفسها نهضة أدبية رائعة ، فقد نجحت في رفع الحواجز التى كانت تفصل بينها وبين الآداب الكبرى في العالم فأصبح لنا أدب في المقال والقصة والمسرحية والشعر التمثيلى بل وأصبح كثير من الأدب المصرى يترجم إلي سائر اللغات ، بل توج فعل أدباء مصر بحصول نجيب محفوظ علي جائزة نوبل في الآداب مما يجعلنا لا نقل في مستوى الإبداع عن أى كاتب عملاق في العالم .

الفهرس

تابع/ الفهرس

تابع الفهرس

تابع/ الفهرس


العلم والإيمان للنشر والتوزيع